

مُلخَص

موضوع البيئة من أكثر القضايا المعاصرة إثارة للجدل، لذلك لابد من تأسيس ثقافة بيئية انطلاقاً من تعاليم القرآن، وهدى السنة النبوية، وإضاءات التراث الإسلامي، بغية تكريس مبدأ لا ضرر ولا ضرار، وإثراء معارف المسلمين، ليتكوّن لديهم سلوك واع، يقدر البيئة، وينمّيها، ويحافظ عليها، ويدفعهم للمساهمة في معالجة الأزمة البيئية المعاصرة، بعد التعرف على كيفية تعامل المسلمين في العصر الوسيط مع مخاطر البيئة، والحلول التي وظفوها، ومدى تجسيدهم لتعاليم الإسلام حول سلامة البيئة.

مُقَدِّمَةٌ

أصبح موضوع البيئة من أكثر القضايا المعاصرة إثارة للجدل لارتباطه بحياة الإنسان اليومية؛ فقد ظهرت مؤشرات خطيرة رهنهت مصير الأجيال نتيجة استنزاف الطبيعة، وسوء استغلالها، وانتشار ظاهرة التلوث، والاحتباس الحراري، هذه الظواهر التي شكلت تهديداً للنظام البيئي، ومستقبل الحياة على سطح الأرض. من حق المرء أن يعجب لهذا الإنسان الذي يدعي التمدن والتقدم في شتى مناحي الحياة، غير أنه وقف عاجزاً أمام ظاهرة تسبب هو في حدوثها، ولم يتبين عواقبها الوخيمة إلا أنه حينما يستدرك ذلك بعقله وجميع حواسه يكتشف الحقيقة التي أضاعها بفهمه الخاطئ للتمدن حيث انساق وراء المظهر المادي واغفل عن الجوهر الروحي والأخلاقي الذي له دور في توجيه التمدن. ومن واجبنا نحن أن نتقصى دور المسلمين في المشاركة في معالجة مشاكل البيئة في مواطنهم، وفي وضع حلول لقضاياها على المستوى العالمي إبان تطوره الحضاري.

إن التحدي الكبير يتمثل في التأسيس لثقافة بيئية انطلاقاً من تعاليم القرآن، وهدى السنة النبوية، وإضاءات التراث الإسلامي، والفقهية، والقضائية، والحسبية، والتاريخية، والجغرافية، والأدبية، والعلمية، بغية إثراء معارفنا بإطار نظري من خلاله يصبح الضمير أكثر وعياً بمشاكل البيئة من وجهة نظر إسلامية، ليستطيع المسلمون التمتع بقوة في رواق المساهمين في معالجة الأزمة البيئية المعاصرة، ويتكوّن لديهم سلوك واع يقدر البيئة، وينمّيها، ويحافظ عليها.

أولاً: مفهوم البيئة لغة واصطلاحاً

١/١ - لغة:

إن لفظ البيئة مشتق من المادة المعجمية «بؤأ» وصيغة الفعل من هذا الجذر هو «بؤأ، بيؤأ، بؤؤأ». وقد استخدم الفعل «بؤأ» في أكثر من معنى، حيث ورد بمعنى رجوع، وبؤأ بذنب أي احتمله واعترف به، وبؤؤأ بذنبي أي التزم وأرجع وأقرّ، وبؤأهم منزلاً: نزل بهم، وأبأت بالمكان: أقمت به، وبؤأتك بيتاً: اتخذت لك بيتاً، وتبؤأه: أصلحه وهياه، وتبؤأ فلان منزلاً: اتخذ له مبيتاً، وتبؤأ: نزل وأقام، وتبؤأ المكان: حلّه، وأبأ عليه ماله: أراحه. والاسم منه: البيئته والبيءة والمبءة، أي: المنزل، والبيءة والبيءة: النكاح.^(١) وجاءت المبءة بمعنى



الفكر البيئي في الحضارة الإسلامية

كمال منصور

أستاذ تاريخ بالتعليم الثانوي
ماجستير تاريخ من جامعة الأمير عبد القادر
الوادي - الجمهورية الجزائرية



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كمال منصور، الفكر البيئي في الحضارة الإسلامية. - دورية كان التاريخية. - العدد العشرون؛ يونيو ٢٠١٣. ص ٥٤ - ٦٩.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية المواطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداة

التعريفات لم تشذ عن المعنى نفسه، حيث وردت بمعنى المجال الذي يعيش فيه الإنسان وينتفع منه بمقومات حياته ويمارس فيه علاقته الإنسانية. وأخذت مفهوم الوسط المكاني الذي يعيش فيه الإنسان مؤثراً ومتأثراً، وهذا الوسط قد يمتد إلى منطقة كبيرة جداً، وقد يقتصر على منطقة صغيرة جداً، قد تكون رقعة البيت الذي يسكن فيه.^(١٥) وجاء في تعريفها أيضاً أنها: "الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقته مع أقرانه من بني البشر".^(١٦) وعُرفت البيئة حديثاً بأنها "الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من عناصر طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها".^(١٧)

أما يوسف القرضاوي، فرأى أن مكونات البيئة، تضم البيئتين الجامدة والحية، البيئة الجامدة تشمل البيئة الطبيعية التي خلقها الله، والمشيدة التي صنعها الإنسان، وتتمثل فيما يحفره من قنوات، وما يغرسه من أشجار، وما يمهده من طرقات، وما ينجزه من أبنية، وما يصنعه من أدوات للسلم والحرب. أما البيئة الحية فتشمل الإنسان والحيوان والنبات. وأشار إلى أن البيئة الطبيعية تتميز بأنها هيئت بعناصرها المتنوعة لخدمة الإنسان، وتوفير حاجاته.

وقد استخدمت المصادر العربية مصطلح البيئة بشكل واسع، إلا أنها تناولت قضايا البيئة المختلفة بشكل منفصل ومتباعد. ويعد مسلمة بن أحمد المجريطي،^(١٨) أول من استعمل كلمة البيئة بالمعنى الاصطلاحي وأثبت تأثيرها في الأحياء في كتابه: "في الطبيعيات وتأثير النشأة والبيئة على الكائنات الحية"، وتكلم فيه عن مراتب الهمينة بين الحيوانات.^(١٩) ووردت لفظة البيئة بمفهومها الاجتماعي، وهو أحد أبعاد المفهوم الاصطلاحي الشامل، حيث ذكرها صاحب كتاب "نفع الطيب" في القرن (١١١ هـ / ١٧٠ م) أثناء سرده لخصال أحد علماء الأندلس: "نشأ في بيئة كريمة".^(٢٠) إلا أنه يبدو أن عدم مزاجية المسلمين الأوائل بين الكلمة، ومفهومها الاصطلاحي، يعود إلى اهتمامهم بالجانب التطبيقي للبيئة: فهم لم ينظروا إليها نظرة شاملة، تربط الأمور بعضها ببعض.

ثانياً: البيئة في القرآن الكريم والسنة النبوية

على الرغم من أن لفظ البيئة لم يذكر في القرآن الكريم، أو السنة النبوية الشريفة، فإن مفهومها، الذي يشير إلى الأرض، ومكوناتها الجامدة، والحية، قد ورد في سور قرآنية مختلفة، وأحاديث نبوية عديدة.^(٢١)

١/٢- البيئة في القرآن الكريم:

غير القرآن الكريم نظرة مخاطبيه نحو العالم، وشكّل فكرًا أساسه التوحيد، فالطبيعة التي أخفق الإنسان في فهم حقيقة وجودها، قد عرّفها القرآن من جديد بأنها آية من آيات الله، وهي إشارة إلى أحد الشروط الواجبة للوصول إلى الإيمان الحقيقي الذي يقوم على التأمل والتفكير في الطبيعة.^(٢٢) قال: ﴿وَكَايِن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.^(٢٣)

بيت النحل في الجبل ومتبوأ الولد من الرحم، ومعطن الإبل،^(٢٤) والبيئة: الحالة، حيث يقال: إنه لحسن البيئة.^(٢٥) ويمكن القول أن كلمة البيئة في اللغة العربية قد يقصد بها المكان أو الحالة، التي عليها الكائن بفعل الظروف المحيطة به.^(٢٦)

وقد استعملت مشتقات كلمة البيئة في القرآن الكريم في عشرة مواقع، منها قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾،^(٢٧) أي جعلها لكم منزلاً، وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بُوْتًا﴾،^(٢٨) أي اتخذ مصر منزلاً لقومكما تسكنون فيها. ويقول: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلِقِتَالِ اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.^(٢٩) أي تهيئ لهم أماكنهم في الحرب. ويتبين من الآيات الكريمة أن معاني البيئة في القرآن الكريم جاءت في معظمها بمعنى المنزل والإقامة بمكان. ولم تشذ السنة النبوية عن هذا السياق، إذ قال الرسول ﷺ: ﴿من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار﴾.^(٣٠) أي تكون النار مثوى له أو مكاناً.

وعليه يتضح لنا أن اللغة العربية، موثقة بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، أكدت عروبة كلمة البيئة.^(٣١) أما كلمة البيئة في المعاجم الفرنسية (Environnement) فهي مشتقة من (environ)، وتعني: المحيط، أو الوسط.^(٣٢) وجاءت في المعاجم الانجليزية (Environment) بمعنى مجموعة الظروف أو المؤثرات الخارجية التي لها تأثير في حياة كائنات عالم الأرض.^(٣٣) يعبر المفهوم العام للبيئة التي تتكون من عناصر حيوية مثل الماء، والأرض، والهواء، وعناصر حيوانية، وعناصر نباتية. والبيئة كنظام حيوي تتفاعل مع بعضها البعض لتكون مصدراً لاحتياجات الإنسان.

٢/١- اصطلاحاً:

البيئة مصطلح حديث،^(٣٤) شائع الاستخدام يرتبط مفهومه بنمط العلاقة بينه وبين مستخدمه، فنقول: البيئة الزراعية، والبيئة الصناعية، والبيئة الصحية، والبيئة الاجتماعية، والبيئة الثقافية، والبيئة السياسية. ويعني ذلك علاقة النشاطات البشرية المتعلقة بهذه المجالات. ويتضح من ذلك أن إيجاد تعريف شامل للبيئة لا يتيسر بسهولة إلا إذا ألمنا بإطار كل مجالات استخدامها المختلفة.^(٣٥)

وقد تشكل هذا المفهوم الاصطلاحي العام بالتدرج، حيث توسع مدلوله بإضافة عناصر جديدة حتى أصبح على هذا النحو من الشمول، وذلك تبعاً لما كان يكتشف من أثر تلك العناصر في حياة الإنسان وفي مجموع الحياة المحيطة به عموماً، فكلما تبين أن دورة الحياة تأثرت بعنصر جديد، أخذ مفهوم البيئة يتطور. وكان هذا المفهوم مقتصرًا في البداية على مكونات الطبيعة من جماد ونبات أي البيئة المكانية التي توسعت إلى البيئة الحيوانية، ثم إلى العناصر الغازية والضوئية، فالأنظمة والتوازنات التي تحكم تلك العناصر، لتنتهي عند المنشآت التي شيدها الإنسان على الأرض.^(٣٦)

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك اتفاق بين الباحثين والعلماء على تحديد معنى البيئة اصطلاحاً بشكل دقيق، إلا أن أغلب

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رِيهِمْ يُحْشِرُونَ»^(٣٤)، ومعنى ذلك أن الحيوانات والطيور مخلوقات، مثل الإنسان، خلقها الله، وقدّر أحوالها، وأرزاقها، وأجالها دون غفلة.^(٣٥) فضلاً عن أنها جزء من التوازن البيئي، ومصدر لحاجات الإنسان المختلفة، فالمحافظة عليها من متطلبات حماية البيئة. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^(٣٦) وهي دعوة إلى تدبر قوة الجمال العجيبة وانقيادها للإنسان، وصرها على العطش وكثرة منافعها،^(٣٧) وتأقلمها مع البيئة الصحراوية.

وقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيُبَيِّنَ الْإِنْسَانُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣٨) وتذكر هذه الآيات الإنسان بالنعم التي بسطها الله لأهله، فسخر له الأنعام، والخيول، والبغال، والحمير، مستفيداً من أصوافها، وأوبارها، وحليبها، ولحمها وركوبها، وحملها، وجمالها، وكلها رحمة ورافة به.^(٣٩) وهي إشارة إلى أن هذه الخيرات تشكل بيئة صالحة للإنسان، لتكون فضاء لعبادة الله سبحانه وتعالى.

(ج) النبات

صنّف القرآن الكريم النبات تصنيفاً شاملاً ودقيقاً، فذكر الحبوب، والنخيل، والأعشاب، والزيتون، والرمان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مَّتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٤٠) وبشير هذا التنوع إلى قدرة الله عز وجل، والفوائد الغذائية التي يتمتع بها كل نوع من هذه النباتات. وخص بعض الخضروات: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا^(٤١) وَفُومِهَا^(٤٢) وَعَدْسِهَا وَتَصَلِيهَا﴾^(٤٣) ونبين مما سبق؛ أن نمو المحاصيل الزراعية، وتنوعها، له علاقة بالمناخ وعناصره خاصة الماء، فضلاً عن التربة باعتبارها الوسط الطبيعي الذي يحتضن النبات.

ويذكر الله تعالى عدّة أنواع من طعام الإنسان والأنعام: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ، أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا،^(٤٤) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَخَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا،^(٤٥) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ...﴾^(٤٦) فالآية الكريمة تحض الإنسان على التدبّر في علاقة التفاعل التي تتم بين عناصر الطبيعة، وما يترتب عنها من منافع. وقد أقسم الله تعالى بالثمرتين المباركتين: ﴿وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾^(٤٧) لإبراز فضلها غذائياً وصحياً، وأنها من آيات الله، ودليل على صلاح البيئة.

(د) الأرض

خلق الله تعالى الأرض من عدد كبير من العناصر المعدنية، والصخرية والمواد العضوية تظهر في شكل مظاهر تضاريسية، وقد

ومن هذا المنظور تبرز الأدلة عناية القرآن بالبيئة من خلال أسماء السور العديدة التي تسمت بأسماء حيوانات وحشرات ونباتات ومعادن وظواهر طبيعية. فنجد من أسماء السور من الحيوانات: سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة الفيل، وسورة العاديات وهي الخيل. ومن الحشرات: سورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت. ومن النباتات: سورة التين. ومن المعادن: سورة الحديد. ومن الظواهر الطبيعية: سورة الرعد، وسورة الذاريات وهي الرياح، وسورة النجم، وسورة الفجر، وسورة الشمس، وسورة الليل، وسورة الضحى، وسورة العصر، وسورة الطور وهي ترمز إلى الجبال. أما الأماكن فوردت فيها سور البلد، والأحقاف،^(٤٨) والججر،^(٤٩) والكهف.^(٥٠) وفيما يلي نستعرض موقف الإسلام في القرآن من البيئة ومكوناتها، التي تضم الإنسان، والحيوان، والنبات، والأرض، والماء، والهواء:

(أ) الإنسان

دعا الإسلام إلى حماية الإنسان ومتملقاته المختلفة، وتتجلى هذه الدعوة في مقاصد الشريعة،^(٥١) والتي حدّدها أغلب العلماء في خمس كليات: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال.^(٥٢) وقد أكد القرآن الكريم على حرمة الإنسان، ونهى على قتله بغير وجه حق،^(٥٣) قال تعالى: ﴿مَنْ أَجْلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾^(٥٤) وهي دعوة إلى تكريم الإنسان باعتباره أهم عناصر البيئة، التي هيئت له، لتكون المجال الطبيعي لحياته.

حرّم الإسلام قتل الأولاد مخافة الفقر، واعتبره جرماً كبيراً، وحذر من فاحشة الزنا، ومنع الإسراف في القتل، أي عدم تجاوز الحد المشروع، بأن يقتل غير القاتل، أو يمثل به، أو يقتل اثنين بواحدة، مثلما كان يفعل أهل الجاهلية، فعلى صاحب الحق، أن يكون عادلاً في قصاصه.^(٥٥) قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا، وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾^(٥٦) تضمنت الآية عدة رسائل تحذيرية، توضح خطورة شيوع الفاحشة بمظاهرها المختلفة، وانعكاساتها السلبية على السلم الاجتماعي، خاصة وأن الإنسان من أهم مكونات البيئة، فبصلاحه تصالح البيئة، وبفساده تفسد؛ لذلك فالتمسك بتعاليم الإسلام السمحة من أهم عوامل المحافظة على سلامة البيئة.

(ب) الحيوان

لقد حرص الإسلام على العلاقة السليمة مع الحيوانات فحض المسلم على حسن معاملتها، حيث وردت عدة آيات قرآنية تشير إلى أهمية هذه الكائنات، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ

السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ^(٦١)، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ^(٦٢)﴾. أما الأنهار فقد جاء ذكرها: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ^(٦٣)﴾.

وأشار الله تعالى إلى العيون: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ^(٦٤)﴾. ووردت البئر في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُورُ الْمُعَلَّلُ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ^(٦٥)﴾. أما الينابيع فذكرها الله تعالى: ﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَرَّاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ^(٦٦)﴾. أما المياه الجوفية فجاءت في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ^(٦٧)﴾.

وذكر القرآن الكريم البحار في مواطن كثيرة منها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٦٨)﴾. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٦٩)﴾. وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُثُودُ وَالْمَرْجَانُ^(٧٠)﴾. ولأهمية الماء شرع الإسلام صلاة الاستسقاء عند الجفاف والجذب، فيخرج المسلمون تضرعاً إلى الله سبحانه وتعالى طلباً للغيث^(٧١). ولخص أبو حامد الغزالي منافع هذا المورد قائلاً: "فأنظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرها، ومع شدة الحاجة إليها، فلو ضاقت لكدرت الحياة في الدنيا، فعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى، أراد بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعادن، إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها من يروم حصرها، فسبحان المتفضل العظيم^(٧٢)". ويستنتج من ذلك: أن الماء سر الحياة وروحها، فهو العنصر الأساسي للحياة، واستمرارها لجميع الكائنات والنباتات، فلا حياة بدونه، فالإنسان قد يعيش فترة طويلة دون طعام، ولكن إذا فقد الماء، فقد حياته.

(و) الهواء

الهواء عنصر حيوي، منفعه للكائنات الحية لا يمكن حصرها، حيث حدّثنا عنها أبو حامد الغزالي في عدة عبارات عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ^(٧٣)﴾. فأشار إلى أن الهواء تتخلله الرياح، وباستنشاقه تعادل الحرارة في الجسم، وشبهه من حيث الأهمية بماء البحر بالنسبة للأسماك، ولولاها لتسربت الحرارة إلى القلب، وأهلكت الإنسان والحيوان. وذكر بدور الرياح في سوق السحب من مكان إلى آخر، لتسقي الأرض، وفي دفع السفن عبر

ذكر القرآن الكريم هذه المظاهر في إشارات عامة شاملة ومطلقة وصادقة^(٧٤)، وهي عناصر ضرورية لاكتمال بيئة الأرض، وتسهيل مهمة الإنسان على سطحها منتعفاً، وعباداً لله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَيَنْعَمُ الْمَاهِدُونَ^(٧٥)﴾. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا^(٧٦)﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٧٧)﴾. وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، وَالْجِبَالَ أُرْسَاهَا، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ^(٧٨)﴾. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ^(٧٩)﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ^(٨٠)﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ^(٨١)﴾. وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا أَمِينِينَ^(٨٢)﴾.

وقد فسّر أبو حامد الغزالي هذه المعاني التي وردت في الآيات الكريمة موضعاً الحكمة من خلق الأرض، وفوائد مظاهرها السطحية، فالله سبحانه وتعالى دلّل طرقها لطلب الرزق، ووضعها لبقاء النسل من جميع الكائنات، وجعل فيها الاستقرار، ولين سطحها للزراعة، ومهدد لجريان الماء، ويسرها لحفر الآبار في الأماكن المحتاجة، وسخّر ترابها، وطينها في البناء، وصناعة أواني الفخار، وسهل الانتفاع بمعادنها مثل: النحاس والحديد، وألهم الناس استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك، وذكر أهمية الجبال في التوازن البيئي، وتوفير المياه في شكل عيون، وانهار، وتلوج، ونبات الأشجار للعقاقير، والأخشاب، وإيواء الوحوش، والنحل، واستخدامها معالم لاستدلال الطرقات، واتخاذها أماكن محصنة من طرف الفئات القليلة الخائفة^(٨٣). وهذا في حد ذاته إشارة واضحة إلى دور الأرض في تكوين البيئة الصالحة، أو البيئة الفاسدة، حيث بها تنهض الأمم، وتتقدم الحضارات، إذا تم استغلالها بحكمة، والاستفادة من ثرواتها السطحية، والباطنية^(٨٤). ولما كانت هذه العناصر تتفاعل مع بعضها وفق نظام دقيق، في تكامل وتوافق رائع باعتماد كل مجموعة على المجموعة الأخرى السابقة لها بما يضمن حفظ توازن النظام البيئي، فإن حدوث أي خلل أو نقص في مكونات أي مجموعة يؤثر في طبيعة التفاعل، ومن ثم يبدأ النظام في الخلل، فيفقد توازنه^(٨٥). وعليه فإن ذلك الاضطراب يؤدي إلى ظهور عدة مشاكل بيئية عديدة، مثل: التلوّث، والاحتباس الحراري، وذوبان الجليد، وانحسار مساحة اليابس، وكثرة التقلبات الجوية، والأعاصير وغيرها.

(هـ) الماء

اعتبر القرآن الكريم الماء أهم عناصر النظام البيئي، وذكر مصادره السبعة: الأمطار، والأنهار، والبحار، والعيون، والآبار السطحية، والينابيع، والمياه الجوفية، حيث أكد الله لأ أن الماء مصدر الحياة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ^(٨٦)﴾. أما ماء المطر فورد في عدة سور منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

والأخطار من واجبات المؤمن، قال الرسول ﷺ: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه﴾.^(٨٩) فالإنسان المؤمن له مسؤوليات تجاه محيطه العام، تتطلب منه التخلص من ذاتيته، والمساهمة في نظافة ذلك المحيط من كل الآفات، ومكافحة كل مظاهر الفساد، والسعي إلى تنميته بشكل متواصل.

(ب) مكافحة تلوث المياه

نهى الرسول ﷺ عن تلوث الماء: ﴿لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه﴾.^(٩٠) وذكر أن هذا السلوك السيئ، يجلب لصاحبه اللعن: ﴿اتقوا الملاعن الثلاثة: التبرز في الموارد، والظلل، وقارعة الطريق﴾.^(٩١) وهو تنبيه خطير للمفسدين، الذين لا يكتفون برمي الملوّثات في المرافق العامة مثل: مصادر المياه من آبار وأنهار، والغابات والأماكن الظليلة التي يرتادها الناس، والشوارع والطرق والأسواق، والبحار والمحيطات.

(ج) الرفق بالحيوان

الحيوانات جزء من النظام البيئي، منافعها كثيرة ومتنوعة، لذلك فالإنسان مطالب بحسن معاملتها، وعدم إيذاها، رغم أن الرسول ﷺ قد أباح قتل بعض الدواب: ﴿خمس فواسق يقتلن في الحرم، العقرب، والفأرة، والحديا، والغراب، والكلب العقور﴾.^(٩٢) لأنها حيوانات خطيرة، تهدد صحة الإنسان وأمنه، وفي نفس السياق نهى عن الاعتداء على حرمة الحيوان لأهميته في الحفاظ على التوازن البيئي، قال ﷺ: ﴿دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض﴾.^(٩٣) وقال: ﴿غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ربيّ ليهث، قال كاد يقتله العطش، فبزعت خفها، فأوثقت به خمارها، فبزعت له من الماء، فغفر لها بذلك﴾.^(٩٤) ونهى عن العبث بالحيوان وجعله هدفاً للتسلية: ﴿إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً﴾.^(٩٥) فاعتبر ذلك نوعاً من التعذيب، والاستخدام غير المسؤول لهذه الكائنات، التي لها الفضل الكبير على الإنسان.

(د) الغرس والزرع والعناية بالنبات

النباتات الطبيعية والزراعية من عناصر البيئة الرئيسة، فهي تساهم في المحافظة على التوازن البيئي، وتوفير للإنسان حاجاته من الغذاء والدواء، والمواد الأولية للباس والبناء والوقود وغيرها، لذلك حثّ الرسول ﷺ على غرس الأشجار، وزراعة الأرض، واستصلاحها في غير ما حديث، ومنه قوله ﷺ: ﴿ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة كان له به صدقة﴾.^(٩٦) وقال: ﴿إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن أثمرت، فبها صدقة، وإن لم تثمر، فبها صدقة﴾.^(٩٧) وقال: ﴿من أثمرت فسيلة، فبها صدقة، وإن لم تثمر، فبها صدقة﴾.^(٩٨) وقال: ﴿من أثمرت فسيلة، فبها صدقة، وإن لم تثمر، فبها صدقة﴾.^(٩٩) فحماية البيئة، يجب أن تتجاوز مكافحة التلوث، والتقدم إلى التنمية المستدامة، التي تضمن حقوق الأجيال الصاعدة في الانتفاع بخيرات الأرض، وتشجيع أصحاب المبادرات، ومنحهم الأولوية في استثمار الأراضي، والانتفاع بعائداتها.

البحار، والتي تفوق حمولتها الدواب. ثم يعرض إلى فوائدها في تلطيف الجو، وطرده الأوبئة والعلل وتنقية عفن الأرض والمسكن، وكيف تؤدي حركة الهواء إلى تفريق المطر إلى قطرات حتى لا يهلك ما يقع عليه على سطح الأرض.^(٧٥)

يزخر القرآن الكريم بوصف الطبيعة والكون، ليغرس في النفس التفكير، والتدبر في معجزات الله، ومن ثمّ الإيمان والتسليم له. فالمسلم ينظر إلى الكون على أنه منظومة من المخلوقات متحدة في عبادة الله. وإنما ميزه الله سبحانه بمسؤولية التكليف والخلافة على الأرض حتى قبل أن تبرز في الأفق أخطار البيئة.^(٧٦) لذلك يمكن القول: أن علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية مرتبطة بثلاث دوائر، الاستخلاف، والتسخير، والاعمار.^(٧٧) لقد سخر الله سبحانه وتعالى كل ما في الكون للإنسان، بعد أن حمّله أمانة الخلافة، وأدخله في رحلة اختبار طويلة لرعاية البيئة، وإعمارها، خاصة وأن هذا الإنسان، يمتاز عن غيره من الكائنات بميزات الاستقامة، ونمو الحواس، وخاصية التفكير، والقدرة على السمو الروحي.^(٧٨) وما يمكن استنتاجه، أن الآيات القرآنية المذكورة أعلاه، قد أكدت أن مفهوم البيئة في الإسلام، هو مفهوم شامل، فيبي تعني السماء، والأرض، والجبال، والبحار، والأنهار، والنباتات، والحيوانات، والحشرات، وغيرها من المخلوقات، بما فيها الإنسان، الذي سخر له الله سبحانه وتعالى تلك المخلوقات.

١/٢ - البيئة في السنة النبوية:

وردت البيئة في الكثير من الأحاديث والمواقف النبوية. رغم أن قضايا البيئة في ذلك الوقت لم تكن معقدة بهذه الصورة التي نعرفها الآن، فإن الرسول ﷺ قد ذكر العديد من المشكلات البيئية التي مازال يعاني منها العالم اليوم.^(٧٩)

(أ) الطهارة والنظافة العامة

أكد الإسلام على أهمية الطهارة في حفظ البيئة، وجعلها من شروط بعض العبادات خاصة الصلاة، لذا شاعت بين المسلمين مقولة "النظافة من الإيمان"، والتي اعتبرها الرسول ﷺ نصف الإيمان: ﴿الطهور شطر الإيمان﴾.^(٨١) وأوجب الاغتسال: ﴿حق لله على كل مسلم أن يغتسل كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده﴾.^(٨٢) ورغب في نظافة الفم: ﴿السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب﴾.^(٨٣) وأمر بنظافة بعض مواطن الجسم الحساسة صحياً، واعتبر العناية بها من الفطرة: ﴿الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الأباط﴾.^(٨٤) وحذّر من إساءة الطرقات: ﴿الإيمان بضع وسبعون باباً، فأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله﴾.^(٨٥) وقال: ﴿وتميط الأذى عن الطريق صدقة﴾.^(٨٦) ونهى الرسول ﷺ عن البصاق على الأرض خاصة في المساجد: ﴿البصاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنه﴾.^(٨٧) بل نظافة أي مكان على سطح الأرض، قال ﷺ: ﴿وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمي أدركته الصلاة فليصل﴾.^(٨٨) إن سلامة البيئة من جميع الأضرار

فيها الإنسان، ووجدتها صالحة للحياة، تحمّل هؤلاء الحكام المسؤولية الشرعية والأخلاقية للمحافظة على البيئة، وحسن استغلالها.

• وصية الخليفة أبي بكر الصديق لجيش أسامة بن زيد:

لم تكن حالة الحرب المسلمين عن التأكيد على الأمن البيئي، والمحافظة على توازن البيئة. كان ذلك عند توديع الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ لجيش أسامة بن زيد ﷺ المتوجه إلى أُبَيّ (١١١) في بلاد الشام عقب وفاة الرسول ﷺ، فقال أبو بكر: "لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا تعزقوا" (١١٢) نخلاً، ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له... " (١١٣)

• الخليفة عمر بن الخطاب وطاعون عمواس: (١١٤)

تعرضت بلاد الشام في سنة (١٨ هـ / ٦٣٩ م) إلى طاعون أتى على عدد كبير من جند المسلمين وبلغ الخليفة عمر ﷺ خبره وهو متوجه للمرة الثانية إلى الشام من طرف أبي عبيدة بن الجراح ﷺ وأمراء الجيش الذين وافوه في منتصف الطريق، فأخبروه بشدته، فاضطر الخليفة عمر ﷺ إلى استشارة الصحابة فلم يصلوا إلى رأي واحد، (١١٥) وقال له أبو عبيدة ﷺ: "أفراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله؛ رأيت لو أن لك إبلاً هبطت بها وادياً له جهتان إحداهما خصيبة والأخرى جديبة، أليس لو رعيت في الخصيبة رعيتها بقدر الله، ولو رعيت في الجديبة رعيتها بقدر الله؟" (١١٦) وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ غائباً عن المجلس، فأقبل وعالج الموقف بتذكيرهم بحديث الرسول ﷺ السالف الذكر الذي رواه البخاري، ويشير إلى عدم الدخول والخروج من الأرض الوبيئة، فحمد عمر ﷺ الله لأ، ثم رجع بالناس إلى المدينة. وقد كان أبو عبيدة ﷺ من ضحايا طاعون عمواس، فخلفه عمرو بن العاص ﷺ على قيادة الجيش الذي اختار له موضعاً مرتفعاً من الجبال للتخفيف من الوباء، ولما وصل خبر هذا الفعل عمر ﷺ استحسنته. (١١٧)

• أبو جعفر المنصور وتخطيط مدينة بغداد:

أدرك المسلمون منذ وقت مبكر، أثر البيئة في حياة الإنسان، وسلامته الصحية، ولم يكتفوا بذلك بل طبقوه عند تمصير المدن. (١١٨) وتشير الروايات إلى عدم تقبل الفاتحين الإقامة في المدائن، لما اتصفت به من وخومة الجو، وانتشار الغبار، والذباب، واختيارهم لموقعي البصرة والكوفة المناسبين لصحتهم، وأحوال إيلهم بعد الحصول على موافقة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، الذي بعث لهم قائلاً: "إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها إيلهم". (١١٩) ولعل ما فعله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، حين اختار موقع بغداد، لدليل علمي واضح على إعطاء العوامل البيئية أهمية كبرى في تختيار مواقع المدن. حيث قام بعملية تقصي واسعة، عباً فيها خبراء، ورهبان، ومواطنين لإيجاد الموضع المناسب، بل

(هـ) الوقاية من الأخطار والأمراض المعدية

لم تقتصر توجهات الرسول ﷺ على البيئة المحيطة بالإنسان، بل تعدتها إلى أهم مكوّن لهذه البيئة، وهو الإنسان نفسه، كي يتجنب مصادر ضرره، وقد وردت أحاديث كثيرة تحثنا على الوقاية من بعض الأخطار والأوبئة، منها قوله ﷺ: «لا تركوا النار في بيوتكم حين تنامون». (١٠٠) وهي دعوة إلى تجنب الحرائق، والاختناق. وقال أيضاً: «ختموا الآنية، وأجيفوا الأبواب، وأطفئوا المصابيح، فإن الفويسقة» (١٠١) ربما جرّت الفتيلة، فأحرقت أهل البيت»، وذلك عند النوم. ووجهنا الرسول ﷺ إلى الطريقة التي نظهر بها الإناء إذا لعقه الكلب: «طهور إناء أحدهم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرّات أو لاهن بالتراب». (١٠٣) وذلك كإجراء وقائي من الأمراض. ونيّه الرسول ﷺ إلى خطورة المرضين الوبائيين، الطاعون (١٠٤) والجذام، (١٠٥) وإلى ضرورة الحذر منهما: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»، (١٠٦) وقال: «فرّ من الجذوم، كما تفر من الأسد»، (١٠٧) ومن أدعية الرسول ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام ومن سيء الأسقام». (١٠٨) لم يكتف الرسول الكريم ﷺ بالتوجهات النظرية لمواجهة الأمراض الفتاكة، بل حتّى على تدابير عملية، أهمها الحجر الصحي، فضلاً عن التقرب إلى الله تعالى بالدعاء. وهي دعوة إلى الطهارة، وبذل كل الجهود لمكافحة الأمراض والأوبئة، التي تهدد حياة الإنسان، وأمنه، واستقراره.

ثالثاً: البيئة في التاريخ الإسلامي ومصادر التراث

١/٣- البيئة في التاريخ الإسلامي:

كانت الاعتبارات البيئية في مقدمة اهتمام المسلمين عند التخطيط لبناء المدن، أو التوسع العمراني، أو تصميم المباني، أو عند تغيير مكان الإقامة.

(أ) الرسول ﷺ ووباء المدينة

واجه المهاجرون في المدينة المنورة تحدياً بيئياً خطيراً، تمثل في وباء الحى الذي اشتهرت به قبل الإسلام، حيث وجد الصحابة صعوبة في التأقلم مع مناخها، مما جعل بعض الذين توعدوا بهذا الوباء يلعنون كبار قريش الذين أجبروهم على ترك مكة، ويستنجدون بالرسول ﷺ للدعاء لنقل الوباء عن المدينة، وقد اعتبر السهمودي تحويل الوباء من أعظم المعجزات. (١٠٩) ويرى أن أفراداً من قبيلة عرينة العربية لم يناسبهم جو المدينة، فمرضوا، فرخص لهم الرسول ﷺ أن ينتقلوا إلى مرعى إبل الصدقة، ليشربوا من ألبانها، ويغيّروا الأجواء. (١١٠) وما يمكن استخلاصه أن هذه المواقف، تؤكد أن الإنسان ابن بيئته، ومن الطبيعي أن تعترضه صعوبات في التأقلم مع البيئات الجديدة.

(ب) الأمن البيئي من خلال جهود بعض خلفاء المسلمين

استفاد الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من الهدي النبوي في جميع المجالات، وبما أن البيئة بجميع مكوناتها، قد استخلف

الحفاظ على سلامة المدن من الأخطار، والروائح الكريهة والضوضاء والتلوث والمزابل والأدخنة.

(أ) فساد الهواء

لم يسلم الهواء على مر التاريخ من التلوث بدخول مواد غريبة عليه، كالغبار والغازات والأبخرة التي كانت تتصاعد من ثورات البراكين، أو تنتج عن حرائق الغابات، وكالأتربة والكائنات الحية الدقيقة المسببة للأمراض، إلا أن ذلك كله لم يكن بالحجم المخيف، بل كان في وسع الإنسان أن يتفادى أخطاره، أو يتحمل آثاره. وبرزت مشكلة تلوث الهواء بشكل مزعج في العصر الراهن مع انتشار الميكنة، وتوسع النشاط الصناعي. ويعرّف تلوث الهواء بأنه وجود أي مواد صلبة أو سائلة أو غازية في الهواء بكميات تؤدي إلى وقوع أضرار مباشرة، أو غير مباشرة في الكائنات الحية، أو المواد غير الحية المكونة للنظام البيئي، أو تجعل الظروف التي تعيش فيها الكائنات الحية غير ملائمة لحياتها، أو تسبب خسائر مادية.^(١٢٥) ولم تكن البلاد الإسلامية في منأى عن تلك التغيرات البيئية التي أفسدت الهواء، وعرضت حياة الإنسان إلى الخطر.

ويرى الجاحظ أن فساد الهواء لا يؤثر فقط في فساد الجسم، بل يعمل على فساد الطباع: "لا تنكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي، فيفسد ماؤهم، وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام".^(١٢٦) ويمكن أن نلاحظ ذلك في المناطق ذات الحرارة والرطوبة العاليتين. ويرجع ابن خلدون كثرة الوفيات إلى أسباب كثيرة، منها المجاعات والأوبئة، وفي الغالب إلى الهواء لكثرة العمران والرطوبة والعفونة، ولهذا فإنه من الحكمة، أن يبعد الإنسان بين المساكن حتى يتمكن الهواء من التمتع، ليذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن.^(١٢٧) كأن هذا الأخير يشير إلى ضرورة ترك فضاءات أثناء التخطيط العمراني بين المباني السكنية، تعطي انسيابية لحركة الرياح، التي تعتبر من أهم العناصر الطبيعية، التي تساعد على مكافحة التلوث.

وكشف إخوان الصفاء في رسالتهم السابعة عشرة دور الهواء في التخفيف من الضوضاء والتلوث السمعي: "أن الهواء جوهر شريف فيه فضائل كثيرة، وخواص عجيبية... كما يمنع الأصوات بسيلانه أن تثبت زماناً طويلاً فيقل الانتفاع بها، ويكثر الضرر منها، وذلك أن الأصوات ليست تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظها، ثم تضمحل ولو ثبتت الأصوات في الهواء زماناً طويلاً، لامتأله الهواء من الأصوات ولعظم الضرر منها، حتى لا يمكن أن يسمع ما يحتاج إليه من الكلام والأقاول".^(١٢٨) وهذا يعني أن من خصائص الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض، وأحد مكوناتها الطبيعية القدرة على امتصاص الموجات الصوتية، وبالتالي التخفيف من حدة الضجيج الصناعي، الذي له انعكاسات سلبية على صحة الإنسان خاصة في عصرنا الحالي الذي طغت عليه الآلة، التي توسعت استخداماتها لتشمل جميع الأنشطة.

خرج بنفسه إلى الموقع، الذي عينه أصحابه، وبات فيه ليختبر مناخه، فوجده يمتاز عن غيره من الأراضي الواقعة على دجلة بخلوه من الوباء الذي ينقله البعوض، وطيب ليلاليه وصفاته حتى في أشد أيام الصيف حرارة، فضلاً عن وفرة المياه وخصوبة التربة. وقد أشرف المنصور على تخطيط المدينة ووضع حجر الأساس سنة (١٤٥هـ/ ٧٦٢م). وتشير الدراسات إلى؛ أن البناء المدور يكون عادةً أكثر تعرضاً للشمس والهواء من أي بناء آخر، وهذا ينطبق على الشكل الدائري لبغداد لتكون مدينة صحية.^(١٢٠)

(ج) البيئة وبناء البيمارستانات^(١٢١)

أنشأ المسلمون المستشفيات (البيمارستانات) في المشرق والمغرب، وكانت تتمتع بمواقع تتوفر فيها شروط الصحة، والجمال، وأنفقوا على بنائها، وإدارتها أموالاً ضخمة، كانت تحصل من الأوقاف. وهي إشارة إلى ما يوليه الحكام من اهتمام كبير لصحة الناس ومعالجة المرضى. وامتدت هذه العناية اللافتة إلى طريقة تعيين مدراء المستشفيات، مثل حالة الطبيب الشهير أبي بكر الرازي (ت. ٣١٤هـ/ ٩٢٦م) الذي دخل في مسابقة لإثبات علمه، وتصلّعه بالطب مع مئة منافس للفوز بإدارة مستشفى بغداد، حيث أصبح بعدها، يشرف على فريق يتعدى أربعة وعشرين طبيباً مختصاً.^(١٢٢) وتذكر قصة شهيرة عن الرازي أعطى فيها أهمية للشروط البيئية في تحديد مواقع المستشفيات، وذلك عندما استشاره عضد الدولة البويهري في اختيار موقع البيمارستان العضدي في بغداد، حيث اعتمد على مدى صمود قطع اللحم ضد التفسخ، فذهب إلى نواح عدة في عاصمة الخلافة العباسية ليختبر أصحابها هواء، وأطيبها جواً، إن وضع في كل مكان قطعاً من اللحم، ليختار المكان الذي فسد فيه اللحم بعد مدة طويلة.^(١٢٣) وهي تجربة تعبر عن المستوى العلمي الراقى الذي كان يتمتع به الأطباء المسلمون.

وذكر المسعودي خبراً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه بعد نجاح الفتوحات الإسلامية في العراق، والشام، ومصر، وغيرها، كتب إلى أحد الحكماء مستوصفاً بقاع المعمورة: "إننا أناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوا الأرض، ونسكن البلاد والأمصار، فصف لي المدن وأهويتها ومسكنها، وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها". فكانت وصفاً ذلك الحكيم تتضمن مضار الحياة بالمناطق الباردة والحارة، ومنافعها بالمناطق المعتدلة، ورصد خصائص البيئة الطبيعية في عدة بلدان مثل: الشام، ومصر، واليمن، والحجاز، والمغرب، والعراق، وفارس، والهند، والصين.^(١٢٤) إن استقراء تلك المواقف، التي ميّزت التاريخ الإسلامي، يؤدي إلى استنتاج أن المسلمين الأوائل، كانوا يتمتعون بفكر بيئي راق، ارتبط بعدة اعتبارات أمنية، وصحية، واقتصادية.

٢/٣- البيئة في مصادر التراث:

تناولت كتب التراث الإسلامي موضوع البيئة بشكل لافت، يوحى بأن الأمن البيئي سلوك حرصوا على الالتزام به، فأكدت على ضرورة

وقد لاحظ ابن خلدون: أن أهل البادية أكثر صحة من أهل المدن والأمصار، الذين تنتشر بينهم الأمراض والأوبئة بكثرة، فهم أكثر حاجة إلى صناعة الطب.^(١٣٣) أي بمعنى آخر: أن حياة سكان المدن أكثر تعقيداً مقارنةً بسكان الأرياف، فهم يمارسون عدة أنشطة مسببة للتلوث، مثل: المدايح، والمصايغ، والمداخن.

(ج) المؤسسات والمرافق العامة

فصلت كتب التراث، خاصةً الحسبة،^(١٣٤) في موضوع البيئة، حيث حدّدت الضوابط والشروط الصحية التي يجب أن تكون عليها مؤسسات الخدمة العامة للحفاظ على صحة السكان وحماية المدينة من الأوساخ والتلوث. أشار ابن الإخوة إلى دور المحتسبين في مراقبة الجوامع والمساجد، وأمر قومتها بكنسها، وتنظيفها في كل يوم من الأوساخ، ونفض أفرشتها من الغبار، ومسح جدرانها، وغسل قناديلها، فضلاً عن حمايتها من الصبيان، والمجانين، وغيرهم بخلق أبوابها عقب الصلوات.^(١٣٥) وشدّد ابن عبد الرؤوف على ضرورة احترام الطرق، والشوارع، وعدم رمي الأزبال، والجيف وما شابهها فيها، ومنع الصباغين من نشر مصبوغاتهم المبلولة على الطريق، واتخاذ أفرانهم على الطرق، فإنهم يؤذون المارة بالأوساخ والدخان، فضلاً عن أصحاب الصنائع الأخرى من حطابين، وفخارين، وجباسين، وخضارين، وحجامين، وغيرهم، الذين ألزموا بأداب الصحة العامة.^(١٣٦)

وأكد الشيزري على تنظيم الأسواق تنظيمًا يسمح بتوفير الأمن لها، ويمنع عنها الضرر، ويحقق منفعة الارتفاق بها، حيث ينبغي أن تكون الأسواق في أماكن واسعة ومرتفعة ومبلمطة، وفضل أن تكون للصنائع المتجانسة سوق مشتركة خدمةً للباعة، والمشتريين، والتزاماً بشروط النظافة، فمن كانت صنعتهم تحتاج إلى وقود نار، كالخبازين والطباخين والحدادين، فيستحب أن تبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين، وألزم أهل الأسواق بكنسها، وتنظيفها من الأوساخ والطين المجتمع.^(١٣٧) وأكد إخوان الصفاء على التفاوت بين الصنائع في منافعها، وقارنوا بين الزبالين والعطارين: "وأما صناعة السمّادين والزبالين، فإن الضرر في تركها عظيم عام على أهل المدينة، وذلك أن العطارين الذين الموضوع في صناعتهم مضاد للموضوع في صناعة السمّادين، لو أنهم أغلقوا دكاكينهم، وأسواقهم شهراً واحداً، لم يلحق من ذلك من الضرر لأهل المدينة، مثل ما يلحق من الضرر من ترك السمّادين صناعتهم أسبوعاً واحداً، فإن المدينة تمتلئ من السماد والسرقت والجيف والقادورات وما يتنصع عيش أهلها من أجلها".^(١٣٨)

أما أصحاب الحمامات، فينبغي على المحتسب أن يأمرهم بغسل الحمامات، وكنسها، وتنظيفها بالماء الطاهر غير المستعمل، يفعلون ذلك عدة مرات يومياً، ويلزمهم بتدليك أرضيتها من العوالق حتى لا تنزلق أرجل الناس، ومتى برد الحمام، ينبغي على الحمامي، أن يبخّر بالخزّام، فإن دخانها يحيي هواءه، ويطيّب رائحته. ومن الإجراءات الوقائية منع ذوي الأمراض الجلدية مثل: المجذوم

(ب) السكن الصحي وغير الصحي

حرص العلماء والمفكرون المسلمون بفكرهم في وضع الأسس البيئية لتصميم وبناء المساكن، فقد أخذت التهوية، وحالة الجو، ونوع التربة، وعامل السطح، ووفرة الماء في عين الاعتبار. تكلم ابن سينا عن أنواع المساكن تبعاً للظروف الطبيعية، وتوصّل إلى الشروط الآتية: "ينبغي لمن يختار المساكن، أن يعرف تربة الأرض، وحالها في الارتفاع والانخفاض والانكشاف والاستتار، وماءها وجوهر مائها... ويعرف رياحها، هل هي الصحية الباردة، وما الذي يجاورها من البحار والبطائح والجبال والمعادن، ويتعرف حال أهل البلد في الصحة والأمراض... وجنس أغذيتهم... ثم يجب أن يجعل الكوى، والأبواب شرقية شمالية، ويكون العمدة على تمكين الرياح الشرقية من مداخلة الأبنية، وتمكين الشمس من الوصول إلى كل موضع فيها، فإنها هي المصلحة للهواء، ومجاورة المياه العذبة الكريمة الجارية النظيفة، التي تبرد شتاء، وتسخن صيفاً، خلافاً، الكامنة أمر جيد منتفع به".^(١٣٩) لقد أفاض ابن سينا الحديث عن العوامل البيئية، التي يمكن أن تؤثر في الفكر العمراني، وتضيء طريق أهل الاختصاص، مراعاةً لحاجات الإنسان، وصحته.

واستوحى ابن قيم الجوزية خصائص السكن الصحي من هدي الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، الذين لم يتهافتوا على بناء المنازل العالية، والمزخرفة، والواسعة. حيث قال: "بل كانت من أحسن منازل المسافرين، تقي من الحر والبرد، وتستر عن العيون، وتمنع من ولوج الدواب، ولا يخاف سقوطها لفرط ثقلها، ولا تعشش فيها الهوام لسعتها، ولا تعتور عليها الأهوية، والرياح المؤذية لارتفاعها، وليست تحت الأرض فتؤذي ساكنها، ولا في غاية الارتفاع عليها، بل وسط، وتلك أعدل المساكن وأنفعها".^(١٤٠) وهي دعوة إلى الوسطية، وتفادي التكلّف في بناء المنازل، مع ضرورة إتقانها حتى تصمد أمام الأخطار.

أما الجاحظ فذكر مواصفات بيوت البصرة في عصره، حيث حرص أصحابها على تخصيص مكان لبالوعة المرحاض، وآخر في فناء المنزل لحفر البئر والغسيل، وبناء المطبخ على السطح لتفادي الروائح الكريهة داخل البيت. ونبه إلى أن اتخاذ المطابخ على سطوح المنازل يشكل خطراً على ساكنها في حالة نشوب حرائق، لأن تلك السطوح سيّدت بجذوع النخل، والقصب، والأخشاب، وعلمها طبقة رقيقة من الطين. وبخصوص بالوعات المنازل، فإنها سريعة الامتلاء، وتنظيفها يكلف عبئاً مالياً.^(١٤١) وحكى موقفاً لأحد البخلاء، أراد أن يقتصد المال في إفراغ بالوعة منزله، حيث كان يؤجل تنقية البالوعة إلى يوم المطر الغزير، ليؤجر رجلاً واحداً فقط، يخرج ما فيها، ويصبه في الشارع، فتجرفه سيول المطر معها، فالمسافة بين بالوعته وموضع التفريغ حوالي مائة متر.^(١٤٢) وتبيّن مما سبق: أن الجمع بين المرحاض، والمطبخ، والبئر في مكان واحد داخل المنزل، يشكل تهديداً لصحة أصحابه، ويسهل انتقال الأمراض بينهم.

كبير في تحديد سلوك القاطنين بها، وما يتطلبه ذلك من ضرورة احترام الآداب العامة.^(١٤٧) ويترتب عن المبدأين السابقين، الأخذ بالعرف، ودفع الضرر، حسب تقرير أحكام البناء، ظهور مبدأ آخر يسمى: "حيازة الضرر"، ويقصد به أن السابق في البناء من حقه التمتع بعدة المزايا، أهمها حيازة الضرر، وتملك الأرض، وهذا يفرض على الجيران الجدد الأخذ به، واحترامه عندما يعززون على البناء، بينما تبقى الطرق والشوارع، ملكاً للجميع، فالسيطرة عليها من حق المارة أو المستعملين لها.^(١٤٨) وتبين لي من خلال تصفيحي، للكثير من صفحات كتب النوازل، التي بين أيدينا، أنها اشتركت في ذكر نفس القضايا، التي كانت تشغل بال أهالي المغرب والأندلس في القرون الإسلامية الوسطى، حيث اعتمد الفقهاء على قاعدة دفع المضار، وجلب المصالح في إصدار فتاويهم، حماية للفرد والجماعة.

(أ) أذى الطرق والشوارع والأسواق

تعتبر الطرق والشوارع والأسواق من أكثر المرافق العامة عرضة إلى التجاوزات، وذلك لتباين مصالح الناس، الأمر الذي أدى إلى عدم احترام مبدأ دفع الضرر من أغلب الناس، حيث فضلوا عليه مبدأ الضرر خدمة لمصالحهم الخاصة، واعتدوا على رفقة الطريق، إلى أن لفت ذلك انتباه المارة، فقاموا بوقفهم. إن ظاهرة خروج الناس على الطريق كثيرة في معظم المدن، وتذكر نوازل مختلفة ذلك، فربط العلاقة بين هذه النوازل، نستطيع التعرف على عدة أمثلة لتطور تنظيم الطريق، ونذكر هنا إلى أن بعض الناس، حولوا بيوتهم إلى حوانيت، بفتح أبواب إلى الشارع، ثم أقاموا في الشارع أعمدة، وسقفوا عليها. وكان القضاة يوجهون أوامر الهدم باستمرار. ولكن هناك العديد من الأماكن، لم تحترم أحكام القضاء التي أمرت بالهدم، لعدم احتجاج المارة أو الجيران، وعليه يصبح الجزء المأخوذ من الطريق حقاً للمعتدي بالتقادم. وإذا لم تهدم، ينتقل المعتدون على حرمة الشارع، إلى الخطوة الموالية، وهي تحويل جزء من الدار إلى حانوت، وبناء أعمدة على الطريق، تجعلها بعد عدة سنين من مكونات الدار. ويمكن الإشارة هنا إلى جملة من المعايير، اعتمد عليها بعض الفقهاء في حل النزاعات التي كانت تحدث بين السكان، وذلك شريطة انتفاء وقوع الضرر من الفعل، فمثلاً: تعد الطريق واسعة، إذا زاد عرضها عن سبعة أذرع.^(١٤٩)

وذكر ابن سهل فتوى خاصة بطائفة الخزازين^(١٥٠) في أحد الأسواق، حينما عزموا على طرد المحتسب من سوقهم، وظهروا رغبة في الانتقام منه، لما اكتشف غشهم، حيث اصدر المفتي حكمه بعدم أحقيتهم في إيذائهم له، بل يجب على المعارضين عليه، الخروج من السوق، لتخليص الناس من غشهم، وفساد أخلاقهم، وحماية أموال المسلمين منهم.^(١٥١) وعرضت مسألة أخرى عن طين الأسواق والأحياء السكنية، هل أصحابها ملزمون بإزالته عن المياه القدرة، التي تخرج من الآبار، لأن ذلك يضر المارة، فكان الجواب ضرورة إزالة الطين، إذا كانت هناك مصلحة، ويمنع إجراء المياه النجسة في الطرق، فذلك يعد إثماً.^(١٥٢)

والأبرص الدخول إلى الحمام.^(١٣٩) والمحتسب مطالب بأن يأمر الخبازين برفع سقائف أفرانهم، وفتح مداخن في سقوفها، ويأمرهم بكنس بيت النار، وغسل المعاجن وتنظيفها، ومنع العجان من استعمال قدميه، وركبتيه ومرفقيه أثناء العجن، لأن ذلك مهانة للطعام، حتى لا يتساقط عرق إبطيه، وجسده في العجين، ويأمره بأن يكون مُلثماً وعلى جبينه عصابة، وأن يزيل شعر ذراعه لئلا يسقط منه شيء في العجين.^(١٤٠)

ويمنع الخبازون من مجاورة أهل الحرف المستقدرة كباعة السردين، وسائر أنواع الحوت، والبيطرة، والحمامين، ويؤمرون بتنظيف ساحاتهم، والابتعاد عن المواضع الوسخة.^(١٤١) أما الصيادلة، والعطارون فإنهم أكثر أصحاب الصناعات تعاطيا للغش، فهم يستعملون مواد، وعقاقير مختلفة ومتنوعة، لذلك فالمحتسب مطالب يومياً بمتابعتهم، وتوجيههم، وتخويفهم بالعقوبة، والتعزير حرصاً على صحة الناس، الذين يجهلون مكونات الأدوية، والعطور التي يشترونها.^(١٤٢) ويستنتج مما سبق؛ أن خطة الحسبة في التاريخ الإسلامي، خاصة عندما كانت الدولة الإسلامية تتمتع بقوتها، قد ساهمت في توجيه سلوكيات الناس وضبطها، وردع المفسدين برفع شعار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ولما ضعفت الدولة الإسلامية، تراجعت مكانتها بين الناس، ولم تحافظ على تلك الهيبة التي كانت تتمتع بها.

٣/٣- فقه النوازل^(١٤٣) والقضايا البيئية

عمل الفقهاء المسلمون في أحكامهم، على مواكبة التطور الحاصل في حركة البيئة العمرانية، فقد اعتمدوا في تناولهم لأحكام البنين، قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.^(١٤٤) وفسروا العرف على كونه مجموعة القواعد التي تم التدرج عليها، والتطبع بإتباعها، ولم يعارضها أحد، طالما أنها لا تخرج عن ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويمكن للعرف المتعلق بالعمران، أن يفهم في ثلاثة معان: الأول ويقصد به الأحكام، التي تستنبط من المسائل العامة، التي لم يرد فيها نص، كعادة أهل أية بلدة، وذلك انطلاقاً من القاعدة الفقهية: "العادة محكّمة"، ومعناها: أن العادة تعتبر وتحكم، إذا كانت غالبية أو دائمة. أما الفهم الثاني، فهو ما أقرته الشريعة من عادات مباحة شائعة بين الجيران لتحديد الأملاك والحقوق، وذلك انسجاماً مع قاعدة مَنْ في يده شيء فهو ملكه، لا يحق لأحد الاعتراض عليه، ولا يكلف إثباته ببينة. أما المعنى الثالث، فيتمثل في النمط البنائي، حيث عندما يتصرف الناس في البناء بطريقة متشابهة، يبرز عندئذ عرف بنائي.^(١٤٥)

كما اعتمد الفقهاء في نفس الاتجاه، الحديث النبوي الشريف: ﴿لا ضرر ولا ضرار﴾.^(١٤٦) كقاعدة لحركة العمران، ويمكن ويمكن ضرب المثال التالي: وهو الضرر الذي ينعكس عن فتح نافذة، ومدى تأثير هذه العملية على العلاقة بين جارين أو أكثر. فالعلاقة بين البنائيات المتجاورة ليست جامدة، بل تساهم إلى حد

أحد المنازل، يؤدي إلى الحط من سعر ذلك المنزل عند بيعه، إذ لا يرغب الكثير من الناس في شرائه. وأشار إلى أن الضرر الذي يمكن أن يحدثه الإنسان في ملكه درجات، منه المجمع على منعه وإزالته، ومنه المختلف حوله، وهو الضرر الذي لا يؤثر في حائط، وبناء، واكتشاف الجيران، كضرر صوت الرحي، ومنه ما لا يجب منعه باتفاق الفقهاء المالكين، وهو ضرر ارتفاع البنيان، ومنع الشمس، وهبوب الرياح، أما إذا كان القصد الإضرار بالجار، فيجبر صاحبه على عدم القيام بذلك، أو إزالته.^(١٥٦) وفي موضع آخر: أكد على ضرورة الابتعاد عن كل ما يهدد أمن، وراحة، وصحة الجيران وغيرهم، أي كل شيء لا يستطاع الاحتراس منه، مثل الهائم الضارة، فهي تهلك الشجر، والزرع، وتؤدي الصبيان.^(١٥٧)

ومن كتب الفقه التي اهتمت بأحكام منع الضرر الناتج عن المياني، كتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، الذي أوضح أن الضرر، يتأتى من الدخان، والرائحة، والضوضاء، وسوء استعمال الطريق، والنظر من الكوى، والأبواب. أما الضرر الذي مصدره من الدخان، فينقسم إلى قسمين: الأول، دخان التتور، والمطابخ، وهذا لا يُمنع لعدم إمكانية الاستغناء عن مسبباته، وهي عملية الطبخ، والثاني، دخان الحمامات، والأفران، وهذا يمنع، لأنه يتسبب في إلحاق الضرر بالسكان المجاورين لمصدر الدخان، ولهذا يجب أن تكون الحمامات، والأفران، خارج المناطق السكنية لتفادي إحداث الضرر. وكذلك الأمر بالنسبة للرائحة، فيمنع إحداث مدايح الجلود داخل التجمعات السكنية، نظرًا لما تسببه من روائح كريهة.^(١٥٨)

وينطبق ذلك على مصدر الضجيج الصناعي وهو الضوضاء، فلا يجوز ممارسة أعمال داخل الدور تسبب إزعاجًا كبيرًا للجيران، وربما أيضًا تنتج عنها اهتزازات، تؤدي إلى انهيار الدور المجاورة. وبما أن الأصل في الأشياء الإباحة، فإن صاحب البيت له الحرية الكاملة في نصب ما شاء من الصناعات، ما لم يؤذ جاره بالأصوات المزعجة، لذلك فكل من يريد أن يقيم نشاطًا في بيته، مثل: الحدادة والرحي، مطالب بأن يتجنب ضرر الأصوات، بتقدير مسافة التباعد عن حائط الجار بثمانية أشبار، فإن كانت رحي تكون من حد دوران الحيوان الذي يديرها إلى جدار الجار، ويشغل ذلك الفراغ ببناء غرفة، أو مخزن، وذلك للحيلولة دون وصول الأصوات المزعجة إلى بيت جاره.^(١٥٩)

واهتم أحد الفقهاء إلى طريقة يتبين بها حالة جدران الجار أثناء تشغيل الرحي، ودرجة الاهتزازات الضارة، والأصوات المزعجة، وأشار بها على ابن الرامي عندما نقل إليه مسألة مرتبطة بهذا الموضوع، وتمثلت التجربة في: "أن تأخذ طبقًا من كاغظ وتربط أركانه بأربعة أخياط، في كل ركن خيط، وتجمع أطراف الأخياط، وعلقه من السقف الذي على الحائط الفاصل بين الدار وبين الرحي من جهة الدار، وتعمل على الكاغظ حبات من كزير (جلجلان) يابس، وتقول لصاحب الرحي: هز رحك، فإن اهتر الكزير على

وسئل أحد الفقهاء عن منزل، يقع في شارع يسلك من الشرق إلى الغرب، ويوجد في الجهة المقابلة للمنزل مسجد، فعزم صاحب الدار على بناء مرحاض، وأراد توسعته على حساب الشارع بقدر ذراع ونصف. فكان جوابه أن هذه المسافة ليست ضارة، ولا حرج في هذه السعة، ولا تعيق حركة الناس. وذكر صاحب المعيار قصة بعض الناس، كانوا يسكنون فوق حوانيت لدق النوى في السوق، انزعجوا من ذلك العمل، وتبين أن أصحاب الحوانيت، يمارسون هذا النشاط منذ عشر سنوات، وقد سبق وأن اخرجوا من السوق، ثم رجعوا إليه، ولما استفتي أحد الفقهاء، رأى ضرورة إخراجهم، إلى مكان لا يضر بالناس.^(١٥٣) وعليه فإن هذه الفتوى تدخل ضمن قاعدة دفع الضرر، فالسكان من حقهم التمتع بكل ظروف الإقامة، بما أن هؤلاء التجار سبق وأن طردوا من السوق نتيجة الأذى الذي تسبب فيه هذه الحرفة.

(ب) أضرار الدخان والرائحة والضوضاء^(١٥٤)

ويقسم الفقهاء المالكين الضرر إلى نوعين، ضرر قائم، وضرر مستجد، أما الأول، فيصنف إلى أضرار ناتجة عن أنشطة استقرت في المنطقة، قبل غيرها من المنشآت، ويجمع الفقهاء على إبقائها لأحقيتها على غيرها، بما أنها ضرر دخل عليه، وأضرار أخرى ناتجة عن أنشطة، بدأت بعد استقرار الجيرة المحيطة بها، ومضى عليها وقت طويل، قبل أن يشكو منها أهل المنطقة، وتحكم هذه الحالة بقاعدتين، القاعدة الأولى: هي وقف الأنشطة في حال الإلتاف والضرر الشديد، مثل دخان نار الحمامات، وغياب الطواحين، ورائحة الدباغة. أما القاعدة الثانية: فتقضي بالإبقاء على النشاط، إن كان ضرره ضئيلاً، ويمكن التكيف معه، مثل دخان المخابز أو مطابخ البيوت.

ويوضح المثالان التاليان، أسلوب تطبيق الأحكام السابقة، حيث سئل ابن القاسم (ت. ١٩١هـ / ٧٠٨م) عن أحقية جيران أحد الأفراد، أراد أن يبني حمامًا، وفرناً، وطاحونًا فوق أرض فضاء، أن يمنعه من إقامتها، فأفاد القاضي بحقهم في ذلك، طالما أنه يسبب لهم ضررًا بليغًا طبقًا لأحكام الإمام مالك، الذي أوصى بمنع الأذى عن الجيران، كما سئل أيضًا عن حداد، أراد أن يبني كبرًا، وفرناً لصهر الذهب والفضة، أو يبني طاحونًا، أو يحفر بئرًا، أو مرحاضًا قرب حائط الجيران، فأفتى أن من حق جيرانه منعه، لما يسببه لهم من ضرر، أما عن الأدخنة المنبعثة من المخابز والأفران، بأنه لم يسمع من مالك ما يخص هذه الحالات، ولكنه يعتبره ضررًا بسيطًا.

ومن هنا نشير إلى؛ أن الفقهاء اهتموا بمسببات الضرر، خاصة المرتبطة بالدخان، والرائحة الكريهة، والأصوات المزعجة. وقد انعكس ذلك فيما بعد بشكل مباشر على العمارة الإسلامية، حيث تم نقل عدة أنواع من المنشآت الصناعية التي تسبب أضرارًا إلى أطراف المدينة الإسلامية.^(١٥٥) وطرق ابن سهل مسألة ضرر الدخان، فإضافة إلى التلوث الهوائي الذي يحدثه، بين أن وجود فرن قرب

مقومات حياته من غذاء وكساء وسكن، ويمارس فيه علاقته الروحية والإنسانية.

- نظرت مصادر الحضارة الإسلامية من قرآن كريم وأحاديث نبوية وكتب تراث وغيرها إلى البيئة نظرة كونية شاملة، وأنها نعمة كبرى سخرها الله سبحانه وتعالى لخدمة الإنسان ومنفعته.
- دعا الإسلام إلى عدم الاعتداء على البيئة، واعتبر ذلك فسادًا في الأرض، وحذر من العواقب الوخيمة التي تترتب عن التلوث، والإسراف، والاستخدام الفاحش لموارد الطبيعة.
- أن نظافة البيئة وحمايتها من التعاليم التي شدد عليها الإسلام لضمان بيئة صحية سليمة خالية من كل ما يعكر صفوها وجمالها.
- أن العلاقة بين البيئة والعمارة علاقة تبادلية، فالبيئة تؤثر في نمط العمارة ومواد بنائها وتفصيلها المعمارية الخارجية والداخلية، أما العمارة فتؤثر في الخصائص المناخية للمواقع التي بنيت فيها.
- كان للبعد البيئي أثر واضح على تخطيط المدن الإسلامية، مما ساعد على نموها وازدهارها، فالمسلمون شيدوا عدة مدن تجسدت فيها شروط بيئية كثيرة مثل: المكان المرتفع، والمياه العذبة، والهواء النقي، والقرب من البحر والغابات والمرعى والأرضي الزراعية.

التوصيات:

- تجسيد ما اهتدى إليه أسلافنا من فكر بيئي متطور، والحفاظ على البيئة لتحسين ظروف الحياة الحضرية، وإنشاء مدن مريحة، ومزدهرة، ومنسجمة مع خصوصيات السكان الاجتماعية، والاقتصادية، والصحية، والأمنية.
- نشر الوعي البيئي بين السكان، واعتبار الحفاظ على البيئة واجب ديني على كل فرد، حتى تتأزر كل القوى الرسمية والشعبية لتكريس هذا المسعى.
- سن تشريعات رديعة لتساهم في حماية البيئة ومعاينة المخالفين وتكريم أصدقاء البيئة من أشخاص طبيعيين وأشخاص معنويين.
- إدراج مادة التربية البيئية في مختلف مراحل التعليم، وذلك حسب الفروق العقلية والنفسية للتلاميذ، لإعداد جيل يتعامل بإيجابية مع بيئته الطبيعية.
- عقد المؤتمرات الدولية، والمحاضرات، والندوات، وتوزيع النشرات التي تركز على أهمية البيئة، وأساليب المحافظة عليها.

الكاغط، قيل لصاحب الرحي: اقلع رحك لأنها تضر بالجار، وإن كان لا يهتر الكزبر على الكاغط، قيل لصاحب الدار: أترك صاحب الرحي يخدم رحاته، لأنها لا تضرك". واحتاط لذلك في حالة عدم وجود خشب في الحائط الفاصل، طلب منه استخدام قصبه غليظة وثبتت في الجدار من جهة دار الجار بمسافة نصف شبر، ثم يعمل بنفس التجربة.^(١٦٠)

وجاءت أحد الفقهاء مسألة عن مسجد قديم خرب، توجد قربه مجموعة من الدور فحولها أصحابها للديغ، وبعد مدة تدخل محتسب، ومنع ذلك، فتم نقل المدايغ إلى خارج المدينة، ثم أراد بعض أهل تلك الدور، إعادة فتحها للديباغة من جديد، فمنعهم أهل المسجد، بحجة أنها مصدر للروائح الكريهة، والقاذورات، وكان الجواب على السؤال هو منع فتح هذه المدايغ مرة أخرى، ما دامت مؤذية برائحها لأهل المسجد، علما أن هذه المدايغ يجب غلقها، حتى ولو طال أمد عمارتها، فلا حيازة على الأحياس، كاقطع الطرق وغيرها من المرافق. واستفتي أحدهم عن شخص، يصنع الخل في بيته، فتذمر الجيران من رائحته الكريهة وإيذائه للجدران، فطلب رأي أهل الطب وأهل البناء، ولما أجمع أصحاب الاختصاص والخبرة، على أن الخل مضر لصحة الإنسان، وخطر على البناء، فرأى بذلك المنع، من أجلهم ومن أجل الجدران.^(١٦١)

وسئل أحد الفقهاء عن شخص يدق النوى بداره لأبقاره، التي يؤومها شتاء بالمنزل، فسببت عملية الدق ضررًا لجاره، فكان رأيه منع العملية، لأنها تضر بالبناء، وتزعج الجيران بسماع الضرب، وأجازها لأوقات، إلا أن تكرارها يوجب المنع.^(١٦٢) يُستنتج من مجموعة الفتاوى السابقة الذكر: أن فقهاء المسلمين القدامى، قد وقفوا من موضوع التلوث بجميع أنواعه موقفًا طيبًا، يدل على وعي كبير بأهمية المحافظة على البيئة من الملوثات المختلفة، التي تؤثر في صحة الإنسان، وتسبب في هلاك الزرع والنسل. وهي كلها مواقف، تدل على نظرة الإسلام العميقة، والواسعة إلى البيئة، حيث طالب الإنسان، بأن يتعامل مع البيئة من منطلق، أنها ملكية عامة، يجب المحافظة عليها، وحمايتها من الأفات، فهي تحتاج إلى إدارة رشيدة، تستطيع استثمار مواردها بحكمة، ما دامت الحياة مستمرة، واعتبارها من المكتسبات الدائمة للإنسانية. وتبقى تلك المواقف المسجلة عبر العصور مجرد توجهات نظرية، إذا لم يفهمها الإنسان كفرد وجماعة بوعي ومسؤولية، ويسعى إلى تطبيقها، قبل أن تتدخل الجهات الرقابية التي تمتلك أدوات الردع.

خاتمة

انتهت الدراسة إلى جملة من النتائج والتوصيات، يمكن حصرها فيما يأتي:

النتائج:

- اهتم الدين الإسلامي بالبيئة بمفهومها الواسع، ومواردها المختلفة سواء أكانت حية أم غير حية، وأظهر أسس التعامل معها، فهي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، ويحصل منه على

الهوامش:

- ٢٢- أوزدمير، إبراهيم، "البيئة في القرآن الكريم"، مجلة حراء، ع. ٠٧، السنة ٠٢، أبريل- يونيو ٢٠٠٧م، ISIKOZEL Egitim, T اسطنبول-تركيا، ٣٠-٣١.
- ٢٣- يوسف، ١٠٥.
- ٢٤- الأحقاف: موطن عاد بأرض اليمن وهم قوم هود عليه السلام. أنظر: أبو خليل، شوقي، أطلس القرآن، (ط.١، بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ٢٠٠٣م)، ٣٠. الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، (ط.٥، الجزائر: موفم، ١٩٩٠م)، ١٩١/٣.
- ٢٥- الحجّز: ديار قبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام، وهي واد بين المدينة والشام، أي بين الحجاز وتبوك، وكانت منازلهم منحوتة في الجبال. أنظر: أبو خليل، المرجع السابق، ٣٤. الصابوني، المرجع السابق، ١٠٥/٢. ابن جنيد، سعد بن عبد الله، معجم الأمكنة الوارد ذكرها في القرآن الكريم، (ط.١، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ١١٥-١٢٦.
- ٢٦- الكهف: أشهر بأصحابه، وهم فئة مؤمنة، فرت بدينها من بطش الحاكم الروماني الوثني دقيانوس. ويوجد الكهف بأفسوس شمال غرب طرسوس الواقعة جنوب غرب تركيا. إلا أن رأيا آخر يقول بوجود كهف قرب مدينة البتراء في الأردن. وهناك من يزعم وجوده قرب مدينة عمان. أنظر: أبو خليل، المرجع السابق، ١٣٦-١٣٩. ابن جنيد، المرجع السابق، ١٧٨.
- ٢٧- القرضاوي، المرجع السابق، ٥٤-٥٥.
- ٢٨- يرى الشاطبي أن الشريعة وضعت لرعاية مصالح العباد في كل وقت، وذلك لوجود هذه المصالح بوضوح في الكثير من الأحكام. أنظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت. ٧٩٠هـ/١٣٨٨م)، الموافقات في أصول الشريعة، (ط.١، بيروت: دار الفكر العربي، د.ت.)، ٦/٢. أي أن المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ أسس التعايش فيها، واستمرار صلاحها، وصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل، واستقامة، وصلاح في العقل، والعمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخبراتها، وتدابير لمناخها. أنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، (ط.٢، الأردن: دار النفائس، ٢٠٠١م)، ٢٧٣. الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، (ط.٥، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م)، ٤٥ - ٤٦.
- ٢٩- ابن عاشور، المرجع السابق، ١٦٨. القرضاوي، المرجع السابق، ٤٤.
- ٣٠- الصابوني، المرجع السابق، ٣٣٩/١.
- ٣١- المائدة، ٣٢.
- ٣٢- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، تفسير القرآن العظيم، (ط.١، القاهرة: مؤسسة قرطبة، ٢٠٠٠م)، ٠٥/٩-٠٨. الصابوني، المرجع السابق، ١٥٨/٢-١٥٩.
- ٣٣- الإسراء، ٣١-٣٣.
- ٣٤- الأنعام، ٣٨.
- ٣٥- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٠/٦-٣٣. الصابوني، المرجع السابق، ٣٨٩/١.
- ٣٦- الغاشية، ١٧.
- ٣٧- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٣٣/١٤. محمد علي الصابوني، المرجع السابق، ٥٥٣/٣.
- ٣٨- النحل، ٨-٥.
- ٣٩- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢٩١/٨-٢٩٥. محمد علي الصابوني، المرجع السابق، ١١٩/٢-١٢٠.
- ٤٠- الأنعام، ٩٩.

- ١- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت. ٣٩٦هـ/١٠٠٥م)، الصحاح، (ط.٤)، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠م)، ٣٧/١. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت. ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، (ط.١، القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ١، ج. ٥، ٣٨٠-٣٨٢.
- ٢- معطن الإبل: مبرك الإبل حول الحوض أو الماء، ومعطن الإبل تعني مواضعها، وأعطن الإبل: سقاها ثم أناخها، وحسبها عن الماء، فبركت بعد الورد، لتعود فتشرب. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، (ط.٤، ج. ٣١، ٣٠٠٠-٣٠٠١).
- ٣- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت. ٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.)، ٠٨/١-٠٩.
- الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني (ت. ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، تاج العروس، (ط.١، بيروت: دار الفکر، د.ت.)، ١، ج. ١، ٠٨-٠٩.
- ٤- شحاتة، عبد الله، رؤية الدين الإسلامي في الحفاظ على البيئة، (ط.١، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م)، ٠٧.
- ٥- الأعراف، ٧٤.
- ٦- يونس، ٨٧.
- ٧- آل عمران، ١٢١.
- ٨- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت. ٢٦١هـ/٨٧٤م)، الجامع الصحيح، (بيروت: دار الفكر، د.ت.)، ١، ج. ١، ٠٨.
- ٩- السعود، راتب، الإنسان والبيئة، دراسة في التربية البيئية، (عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م)، ١٦-١٧.
- 10- *Nouveau petit Larousse*, (Paris: Librairie Larousse, 1972), 381.
- 11- *Learner's dictionary*, (London: Collins Cobuild, 1996), 367.
- ١٢- أبو زريق، علي راضي، الإنسان والبيئة، (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٤١٦هـ)، ٥.
- ١٣- الحمد، رشيد؛ وصباري، محمد سعيد، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩م)، ع. ١٤/٢٢.
- ١٤- النجار، عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، (قطر: مركز البحوث والدراسات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٩م)، ١٩.
- ١٥- السعود، المرجع السابق، ١٧-١٨.
- ١٦- الحمد، وصباري، المرجع السابق، ٢٤-٢٥.
- ١٧- الفقي، محمد عبد القادر، البيئة ومشكلاتها وقضاياها وحمايتها من التلوث، (القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٩٣م)، ١٠.
- ١٨- المجريطي: هو عالم أندلسي عاش في الفترة ما بين (٣٣٩ - ٣٩٨هـ/ ٩٥٠ - ١٠٠٧م)، ينسب إلى مجريط (مدريد)، له عدة مؤلفات في الرياضيات والفلك والكيمياء. أنظر: فارس، محمد، موسوعة علماء العرب والمسلمين، (ط.١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م)، ١٩٢-١٩١.
- ١٩- النجار، المرجع السابق، ٤٣.
- ٢٠- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت. ١٠٤١هـ/١٦٣١م)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (ط.١، بيروت: دار صادر، ١٩٨٨م)، ٥٢٤/٢.
- ٢١- مقري، عبد الرزاق، مشكلات التنمية والبيئة والعلاقات الدولية، (ط.١، الجزائر: دار الخلدونية، ٢٠٠٨م)، ٢٩٤.

٧٦- هوفمان، مراد، الإسلام كبديل، تعريب عادل المعلم، (ط.١، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٧م)، ١٠٠.

٧٧- الدوائر الثلاث - الاستخلاف: يعرف المسلم الحقيقي أنه لا يملك شيئاً في الكون، وإنما هو مستخلف فيه، ينتفع بخيراته، لكن بشروط، فهو لم يرث الأرض ليمارس سيادته المطلقة عليها، قال لا: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. البقرة، ٣٠. وقال تعالى: ﴿ وَتَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾. الأعراف، ١٢٩. وهي مسؤولية انفرد بها عن بقية المخلوقات، فقد خصه الله سبحانه وتعالى بنعمة العقل والأفضلية في قوله لا: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾. الإسراء، ٧٠. وجعل الله سبحانه وتعالى الكون أمانة في يد الإنسان، لذا يجب أن يتصرف فيه وفق المسؤولية المحددة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾. الأحزاب، ٧٢. - التسخير: لقد سخر الله سبحانه وتعالى السموات، والأرض، والبحار، والأنهار، والرياح، والدواب، والأنعام من أجل الإنسان، ليدعم استخلافه، ويعينه على أداء وظيفته الأساسية، وهي العبادة، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. الجاثية، ١٣. - الأعمار: إن من شروط الاستخلاف حسن استغلال البيئة وتنميتها بعد الانتفاع بها والمحافظة عليها من أي تدمير، قال تعالى: ﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا... ﴾. هود، ٦١. وأمر الله عز وجل المسلمين بالاعتدال والوسطية في السلوك، ونهى عن الفساد والإسراف، ودعا إلى الإصلاح، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ... ﴾. البقرة، ١٤٣. وقال تعالى: ﴿ ...وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾. الأعراف، ٨٥. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾. الشعراء، ١٥١-١٥٢. وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ... ﴾. الروم، ٤١.

٧٨- الحلبي، سعدون سلمان نجم، الفلسفة التربوية البيئية، دراسة في تطور الفكر التربوي البيئي منذ بدء التاريخ حتى الفكر الفلسفي المعاصر، (فالتا، مالطا: منشورات ELGA، ٢٠٠٢م)، ٥٩ - ٧٧.

٧٩- شحاتة، المرجع السابق، ٥٢.

٨٠- القرضاوي، المرجع السابق، ٧٥ - ٧٦.

٨١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، مج. ١، ج. ١، ١٤٠.

٨٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، مج. ٣، ج. ٢، ٢٠٤.

٨٣- ابن حنبل، أحمد (ت. ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تج. شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، (ط.١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٥م)، ١٨٦/١.

٨٤- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت. ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، صحيح البخاري، كتاب اللباس، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، مج. ٣، ج. ٧، ٢٠٦.

٨٥- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت. ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تج. شعيب الأرنؤوط، هيثم عبد الغفور، (ط.١، دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩م)، ٥٦٦/٤.

٨٦- رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، مج. ٢، ج. ٣، ٨٣.

٨٧- أخرجه ابن حنبل، ١٧٤/٢٠ - ١٧٥.

٨٨- رواه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، مج. ١، ج. ١، ٩١.

٨٩- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، مج. ١، ج. ١، ١٠.

٩٠- رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، مج. ١، ج. ١، ١٦٢.

٤١- قنّائها: أي القنّاء، نوع من البطيخ يشبه الخيار، يعرف بالقفوس. أنظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (ط.٤، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م)، ٧١٥. الصابوني، المرجع السابق، ٦٢/١.

٤٢- قومها: أي الثوم. أنظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (١٩٨٠م)، ١٥٨/٤. الصابوني، المرجع السابق، ٦٢/١.

٤٣- البقرة، ٦١.

٤٤- قضباً: القضب هو الفصفاة التي تأكلها الدواب رطبة، أو هو العلف. أنظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ١١٧/١. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢٥٢/١٤.

٤٥- أباً: الأُبُّ هو المرعى أو ما تأكله الهائم من العشب. أنظر: الجوهري، الصحاح، ٨٦/١. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٣٥/١. الزبيدي، تاج العروس، (ط.٢، ٢٠٠٤ م)، ٥/٢. الصابوني، المرجع السابق، ٥٢١/٣.

٤٦- عبس، ٢٤ - ٣٢.

٤٧- التين، ١.

٤٨- خضر، عبد العليم عبد الرحمن، المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، (ط.٢، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م)، ٣٧٣ - ٣٧٤.

٤٩- الذاريات، ٤٨.

٥٠- نوح، ١٩ - ٢٠.

٥١- النحل، ١٥.

٥٢- النازعات، ٣٠ - ٣٣.

٥٣- فاطر، ٢٧.

٥٤- القطر: النحاس الذائب. أنظر: الجوهري، الصحاح، ٧٩٦/٢. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (١٩٧٨م)، ١١٧/٢. الصابوني، المرجع السابق، ٥٤٨/٢.

٥٥- سبأ، ١٢.

٥٦- الحديد، ٢٥.

٥٧- الحجر، ٨٢.

٥٨- الغزالي، أبو حامد الطوسي (ت. ٥٠٥ هـ/ ١١١١م)، الحكمة في مخلوقات الله، تج. محمد رشيد رضا قباني، (ط.٣، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٦م)، ٣١ - ٣٩.

٥٩- السرتاوي، فؤاد عبد اللطيف، البيئة والبعث الإسلامي، (ط.١، عمان: دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، ١٩٩٩م)، ٤٨.

٦٠- الفقي، المرجع السابق، ٢٣.

٦١- الأنبياء، ٣٠.

٦٢- النحل، ١٠.

٦٣- ق، ٩.

٦٤- البقرة، ٧٤.

٦٥- يس، ٣٤.

٦٦- الحج، ٤٥.

٦٧- الزمر، ٢١.

٦٨- الملك، ٣٠.

٦٩- البقرة، ١٦٤.

٧٠- النحل، ١٤.

٧١- الرحمن، ٢٢.

٧٢- جيرة، عبد الرحمن، الإسلام والبيئة، (ط.١، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٠م)، ص ٤٦.

٧٣- الغزالي، الحكمة في مخلوقات الله، ٤٧.

٧٤- الحجر، ٢٢.

٧٥- الغزالي، الحكمة في مخلوقات الله، ٤٨ - ٥٠.

- ١١٦- ابن عبد ربه، أحمد بن عمر الأندلسي (ت. ٣٢٨هـ / ٩٣٩م)، العقد الفريد، تج. عبد المجيد الترحيني، (ط. ١)، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٨٨م)، ١٤٢/٣.
- ١١٧- الخضري بك، المرجع السابق، ١٠٠.
- ١١٨- العلواني، مصطفى، "الإسلام والبيئة"، مجلة التراث العربي، ع. ١٠١، السنة ٢٦، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، جانفي ٢٠٠٦م، ١٣٣.
- ١١٩- الخربوطلي، علي حسني، الحضارة العربية الإسلامية، (ط. ٢)، القاهرة: مكتبة الخانجي، (١٩٩٤م)، ٣٠٠-٣٠٥.
- ١٢٠- سالم، السيد عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب: العصر العباسي الأول، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م)، ٣٤٩/٣-٣٥٤.
- ١٢١- البيمارستان: كلمة فارسية مركبة (بیمار) بمعنى مريض و(ستان) بمعنى مكان، فهي إذن دار المرضى، ثم اختصرت فأصبحت مارستان. أنظر: عيسى بك، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، (ط. ٢)، بيروت: دار الراشد العربي، (١٩٨١م)، ٤، البابا، مؤمن أنيس عبد الله، البيمارستانات الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية (١ - ٦٢٢هـ / ٦٢٢ - ١٢٥٨م)، (رسالة نيل شهادة الماجستير في التاريخ)، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ١٣.
- ١٢٢- المبارك، هاني، وأبو خليل، شوقي، دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، (ط. ١)، بيروت، دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر، (١٩٩٦م)، ١٠٣-١٠٧.
- ١٢٣- فارس، المرجع السابق، ١٣٤.
- ١٢٤- المسعودي، أبو الحسين بن علي (ت. ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم محمد السعودي، سلسلة الأنيس، (الجزائر: موفم، ١٩٨٩م)، ٤١/٢-٤٥.
- ١٢٥- الفقي، المرجع السابق، ٣٥.
- ١٢٦- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت. ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، الحيوان، تج. عبد السلام محمد هارون، (ط. ٢)، مصر: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، (١٩٦٦م)، ك. ١، ج. ٤، ٧٠.
- ١٢٧- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت. ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)، المقدمة، (بيروت: دار الجيل، د.ت.)، ٣٣٤-٣٣٥.
- ١٢٨- إخوان الصفاء (عاشوا في القرن ١٠هـ / ١٠م)، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، سلسلة الأنيس، (الجزائر: موفم، ١٩٩٢م)، ١٥٥/٢.
- ١٢٩- ابن سينا، أبو علي الحسين (ت. ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م)، القانون في الطب، (بغداد: مكتبة المثنى، د.ت.)، ١/١٠١.
- ١٣٠- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزري الدمشقي (ت. ٧٥١هـ / ١٣٤٩م)، الطب النبوي، تج. محمد علي القطب، (صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥م)، ١٥٠.
- ١٣١- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت. ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، البغلاء، تج. طه الحاجري، (ط. ٧)، القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ٨٢-٨٤.
- ١٣٢- نفسه، ١١٣-١١٤.
- ١٣٣- ابن خلدون، المقدمة، ٤٦٠-٤٦٢.
- ١٣٤- الحسبة لغة: الحسبة فعلها حسب، ومن أسماء الله تعالى الحَسِيبُ هو الكافي، الحسبة مصدر احتسابك الأجر على الله، الاحتساب طلب الأجر، والاسم الحسبة بالكسر هو الأجر، واحتساب فلان ابناً له إذا مات وهو كبير، أي احتساب الأجر بصره على مصيبيته، صام رمضان إيماناً واحتساباً، أي طلباً لوجه الله تعالى وقوابه، الحسبة اسم من الاحتساب كالعدّة من الاعتداد، والاحتساب في الأعمال الصالحات وعند المكروهات، فلان محتسب البلد ولا تقل مُحْسِبُهُ، احتسبت فلانا اختبرت ما عنده،
- ٩١- ابن ماجة (ت. ٢٧٣هـ / ٨٨٦م)، سنن ابن ماجة، تج. خليل مأمون شيخا، (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)، ٢٠٨/١.
- ٩٢- روه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، مج. ٢، ج. ٤، ١٨.
- ٩٣- روه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، مج. ٢، ج. ٤، ١٥٧-١٥٨.
- ٩٤- روه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، مج. ٢، ج. ٤، ١٥٨.
- ٩٥- روه مسلم في صحيحه، كتاب الصيد، مج. ٣، ج. ٦، ٧٣.
- ٩٦- روه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، مج. ١، ج. ٣، ١٣٥.
- ٩٧- الفسيلة: صغار النخل. أنظر: الجوهر، الصحاح، ١٧٩٠/٤.
- ٩٨- أخرجه ابن حنبل، ٢٠/٢٩٦.
- ٩٩- روه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، مج. ١، ج. ٣، ١٤٠.
- ١٠٠- روه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، مج. ٣، ج. ٨، ٨١.
- ١٠١- الفُونِسِقَة: الفارة. أنظر: الجوهر، الصحاح، ١٥٤٣/٤.
- ١٠٢- روه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، مج. ٣، ج. ٨، ٨١.
- ١٠٣- روه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، مج. ١، ج. ١، ١٦٢.
- ١٠٤- الطاعون: وباء شديد الخطورة، أصاب الأمم السابقة، وكان شديد الفتك بهم، يسببه ميكروب صغير يدعى Pasteurella، وتهاجم هذه الميكروبات أو البكتيريا الحيوانات القارضة كالفران والجرذان، وتنقل بواسطة براغيث الفران إلى الحيوان أو الإنسان. وسائل انتقاله كثيرة، منها عضة البرغوث المعدي والهواء، وهو نوعان: طاعون دملي وطاعون رئوي. أنظر: الخطيب، هشام إبراهيم، الوجيز في الطب الإسلامي، (عمان، باتنة: دار الأرقم، دار الشهاب، ١٩٨٨م)، ٩٢ - ٩٣.
- ١٠٥- الجذام: مرض حبيبي مزمن معد يصيب البشر، ويهاجم الجلد والأغشية المخاطية للمسالك التنفسية العليا، وبعض الأعصاب الطرفية، وطريقة العدوى ليست معروفة، لأنه يمكن إصابة الشخص المخالط للمجنوم ولا يصاب الأكثر مخالطة له. وقد انتشر الجذام في جميع العصور، وهو نوعان: درني، وعصبي. أنظر: الخطيب، المرجع نفسه، ٩٤ - ٩٥.
- ١٠٦- روه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، مج. ٣، ج. ٧، ١٦٨.
- ١٠٧- روه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، مج. ٣، ج. ٧، ١٦٤.
- ١٠٨- أخرجه ابن حنبل، ٢٠/٣٠٩.
- ١٠٩- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت. ٩١١هـ / ١٥٠٦م)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تج. محمد معي الدين عبد الحميد، (ط. ٤)، بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٨٤م)، ٥٩/١-٥٩.
- ١١٠- الكرمي، حافظ أحمد عجاج، الإدارة في عصر الرسول ﷺ: دراسة تاريخية للنظم الإدارية في الدولة الإسلامية الأولى، (ط. ١)، القاهرة: دار السلام، (٢٠٠٦م)، ١٨٢.
- ١١١- أُبْنِي: بلدة فلسطينية، وصلها الفتح الإسلامي بقيادة أسامة بن زيد في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ط (سنة ١١هـ / ٦٣٢م). أنظر: مؤنس، حسين، أطلس تاريخ الإسلام، (ط. ١)، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، (١٩٨٧م)، ١٢٦.
- ١١٢- العَرَقُ: عرق الأرض، يعرقها عرقا: شقها بفأس أو قدوم، لا تعرقوا في الحديث الشريف: لا تقطعوا. أنظر: ابن منظور: لسان العرب، مج. ٤، ج. ٣٣، ٢٩٢٩.
- ١١٣- الخضري بك، محمد، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، تج. زهير الكبي، (ط. ١)، بيروت: دار الفكر العربي، (١٩٩٢م)، ٢٤.
- ١١٤- عمواس: هي كورة فلسطينية بين الرملة وبيت المقدس. أنظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت. ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٧م)، ١٥٧/٤.
- ١١٥- الخضري بك، المرجع السابق، ١٠٠.

١٣٦- ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله (ت. ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م)، آداب الحسبة والمحاسب، تج. فاطمة الإدريسي، (ط.١، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠٥ م)، ١٠٥-١١٠.

١٣٧- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ١١-١٤.

١٣٨- إخوان الصفاء، الرسائل، ١/ ٣٩٠-٣٩١.

١٣٩- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ٨٧-٨٨.

١٤٠- ابن الإخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، ٩٥.

١٤١- ابن عبد الرؤوف، آداب الحسبة والمحاسب، ٧٥.

١٤٢- الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ٤٢-٥٥.

١٤٣- النوازل لغة: جمع نازلة، والنازلة هي: المصيبة الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس، واسم فاعل من الفعل "نزل ينزل"، إذا حل. أنظر: لسان العرب، مج. ٦، ج. ٤٩، ٤٣٩٩-٤٤٠١.

- معناها في الاصطلاح: تطلق النازلة في عرف حملة الشرع على المسألة الواقعة الجديدة التي تتطلب اجتهداً، ويقصد بها كذلك الوقائع والمسائل المستجدة، والفتاوى، استنبطها المجتهدون المتأخرون، لما سئلوا عن ذلك، ولم يجدوا فيها رواية عن المتقدمين. وربما ترجع هذه التسمية إلى سببين، الأول: إما أنها أطلقت نازلة للملاحظة معنى الشدة، وذلك لما يعانيه الفقيه المفتي، من حرج في استخراج حكم النازلة، لشدة ورعه وخوفه من الخطأ، أما السبب الثاني: أنها سميت كذلك للملاحظة معنى الحلول، فهي قضية جديدة تجهل حكمها تحل بالناس. أنظر: الجزاني، محمد بن حسين بن حسن، "الاجتهاد في النوازل"، مجلة العدل، وزارة العدل بالملكة العربية السعودية، ع. ١٩، السنة ٥٥، رجب ١٤٢٤ هـ، ١٤ - ١٥. وعليه يمكن أن توصف النازلة، بأنها واقعة جديدة وشديدة، وقد استنبط بعض أهل العلم، هذه الشروط من المعنى اللغوي للنازلة. واللافت للانتباه، أن الوصفين الأولين وصفان طبيعيين لمعنى النازلة، لأن المسألة التي تحتاج إلى اجتهاد شرعي في معظم الأحيان، لا بد أن تكون قد وقعت، وكانت من المسائل الجديدة، وهذا في جميع المسائل، ثم تختص النازلة بكونها شديدة، بحيث ينشغل بها المسلمون في مجموعهم، وتستدعي موقفاً اجتهادياً شرعياً، وينتج عن ترك الاجتهاد فيها ضرر على الأمة. أنظر: الجزاني، محمد بن حسين، فقه النوازل، دراسة تأصيلية تطبيقية، (ط.٢، الرياض: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٦ م)، ٢٢٠-٢٥.

ويعتبر الاجتهاد في النوازل من فروض الكفاية، حيث يتعين على من يجد في نفسه الكفاءة، وإمكانه النظر في المسائل المستجدة القيام بها، وخاصة عندما يصعب وجود من يستطيع النظر فيها. ومن شروط الواقعة المفتى فيها، أن تكون من المسائل النازلة بالمسلمين، أما المسائل التي لم تحدث، فيكره النظر فيها وقد تحرم. أما أهمية الاجتهاد في النوازل، فتظهر في إحياء الدين وتجديده، وبيان صلاح الشريعة لكل زمان ومكان، وإيقاظ الأمة، ودعوة جادة وصريحة إلى تحكيم الشريعة في جميع جوانب الحياة، وإبراز حيوية الإسلام وتفاعله مع كل العصور. ويحتاج الاجتهاد في النوازل إلى ثلاثة ضوابط: وهي أن يكون الناظر فيها من أهل الاجتهاد، أي: أن يتصف بالإحاطة بأدلة الأحكام، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومواقع الإجماع، والخلاف، وصحيح وضعيف الحديث، والعلم بلسان العرب، والتمكن من أصول الفقه، والتفاني بغرض بلوغ الفتوى السليمة. أما الضابط الثاني، فالمفتي مطالب بأن يكون واسع الاطلاع، وفاقه للواقع، حتى يستطيع التصور التام للنازلة، وفهمها بشكل صحيح. أما الضابط الثالث، فيجب على المجتهد، أن يستند إلى دليل شرعي قوي، في إصدار حكمه. أنظر: الجزاني، الاجتهاد في النوازل، ١٧-٢١.

١٤٤- الأعراف، ١٩٩.

١٤٥- عزب، خالد محمد مصطفى، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، سلسلة كتاب الأمة، (ط.١، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، يوليو- أغسطس ١٩٩٧ م)، ع. ٥٨، السنة ١٧، ٨١-٨٣.

يتحسبون الأخبار أي يتطلبونها، احتسب فلان على فلان أنكرك عليه قبيح عمله. أنظر: لسان العرب، مج. ٢، ج. ١٠، ٨٦٣-٨٦٨.

- الحسبة اصطلاحاً: الحسبة هي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر و يؤدب على قدرها و يحمل الناس على المصالح العامة في المدينة. أنظر: ابن خلدون، المقدمة، ٢٤٩. ابن الأخوة، ضياء الدين محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي (ت. ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م)، معالم القرية في أحكام الحسبة، تج. إبراهيم شمس الدين، (ط.١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١ م)، ٣. الحسبة أمر بمعروف، ونهي عن منكر، وإصلاح بين الناس. أنظر: الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت. ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيد الباز العريبي، (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥ م)، ٦.

الحسبة هي ولاية دينية، يقوم ولي الأمر بمقتضاها، بتعيين من يتولى مهمة الأمر بالمعروف، إذا أظهر الناس تركه، والنهي عن المنكر إذا أظهر الناس فعله. أنظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت. ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تج. سمير مصطفى رباب، (صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣ م)، ٢٦٠-٢٦١.

- نشأة وظيفة الحسبة: اختلفت نظرة الباحثين إلى نشأة الحسبة، في حين يرى البعض منهم، أنها كوظيفة، وُجدت لاستغلال سياسي، وتذكر بعض الدراسات، إلى أن وظيفة المحاسب، لم تظهر في عصر الرسول ﷺ، ولا في عصر الخلفاء الراشدين، ولا في العصر الأموي، بل ظهرت في العصر العباسي، لأغراض سياسية. وظهورها الفعلي، كان في عهد أبي جعفر المنصور، الذي أراد أن يتخلص من أبي مسلم الخراساني، حتى يصفو له الحكم، فقتله بيده عام، فقامت ثورات بقيادة فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني، وكانت من أسلحة المنصور، إخراج فتاوى لقتل أتباع فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني، لأهم زنادقة مارقون، فيقتلون بعد الردة. وكان أول ظهور لفظ المحاسب في عهد المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ / ٧٧٤-٧٨٥ م)، وأول من عين في هذا المنصب هو "عبد الجبار" وكان يعرف بصاحب الزنادقة، لأن وظيفته كانت قائمة على القضاء على الزنادقة، من أعداء الدولة العباسية، أي أن لها توظيفاً سياسياً من حيث النشأة، ثم بدأ الفقهاء يضعون لها الأحكام الفقهية. أنظر: منصور، أحمد صبيح، الحسبة دراسة أصولية تاريخية، (ط.١، القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، ١٩٩٥ م)، ١٢-١٣.

- صفات المحاسب وطريقة اختياره: يجب على القاضي، أن لا يعين محتسباً، إلا بعد إعلام الرئيس بذلك، حتى يمتلك الحجة القوية عليه، إن أراد أن يعزله أو يبقية. ويجب أن يكون المحاسب من أهل العفة، والخير، والورع، والعلم، والغنى، والنبل، والحكمة، والفطنة، وعارفاً بالأمور، لا يميل ولا يرتشي، فتسقط هيئته، ويستخف به، ولا يعاب به، ويوخ المسؤول الذي عينه، ولا يستعمل في ذلك خاص الناس، ولا من يريد أن يأكل أموال الناس بالباطل، لأنه لا يهاب، إلا من كان له مال وحسب.

وبما أن الاحتساب أخو القضاء، فيجب أن يحتل المحاسب المكانة اللائقة بمنصبه، ويشرف القاضي الذي كان وراء تعيينه، فهو لسانه وحاجبه ووزيره وخليفته، وإن اعتذر القاضي، فهو يعوض مكانه فيما يليق به وبخطته، لذلك فمن حقه، أن يستفيد من راتب يحفظ كرامته، وعلى القاضي، فمن ذلك أن يعضده، ويحميه، ويشده، ويتضامن معه، ويقف معه أثناء أداء عمله. أنظر: ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي (ت. ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) وآخرون، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، تج. ليفي بروفنسال، (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥ م)، ٢٠.

١٣٥- ابن الإخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، ١٨٤.

- ١٤٦- سنن ابن ماجة، كتاب الأحكام، ١٠٦/٣.
- ١٤٧- عزب، المرجع السابق، ٨٤ - ٨٥.
- ١٤٨- نفسه، ٨٦ - ٨٧.
- ١٤٩- أكبر، جميل عبد القادر، عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، (ط.٣، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م)، ٢٦٠.
- ١٥٠- الخزازون: مفردهما الخزاز، الخزُّ: خياطة الأدم، خرز الخف، يخززه ، يخززه خرزا، والخزاز: صانع الخفِّ والأحذية، وحرفته الخزازة. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، مج. ٢، ج. ١٣، ١١٣٠.
- ١٥١- ابن سهل، أبو الإصبيغ عيسى (ت. ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م)، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تج. يحي مراد، (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٧ م)، ٦٠٠.
- ١٥٢- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت. ٩١٤هـ / ١٥٠٨م)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تج. محمد حجي وآخرون، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١م)، ٦٩/٩.
- ١٥٣- الونشريسي، المعيار، ٤٤٥/٨، ٤٥٧.
- ١٥٤- الضوضاء: وضوضاً وضوضاً: صاح، وجلب، ويقال: وضوضاً القوم: صاحوا، واختلطت أصواتهم في الجدل، أو النزاع، ونحوه، والضوضاء أو الضوضى: أصوات الناس المزعجة. أنظر: المعجم الوسيط، ٥٤٦.
- ١٥٥- الهدلول، صالح بن علي، "التحكّم في استعمالات الأراضي في المدينة الإسلامية"، المنهل، دارة المنهل للصحافة والنشر جدة، ع. ٥١٩، م. ٥٦، أكتوبر- نوفمبر ١٩٩٤ م، ٧٧- ٨٠.
- ١٥٦- ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، ٦٥٨.
- ١٥٧- نفسه، ٦٦٩.
- ١٥٨- ابن الرامي البناء، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللخي (ت. ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م)، الإعلان بأحكام البنين، تج. فريد بن سليمان، (تونس: مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩م)، ٥٩-٦١.
- ١٥٩- نفسه، ٦٢-٦٣.
- ١٦٠- نفسه، ٦٤.
- ١٦١- البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت. ٨٤١هـ / ١٤٣٨م)، فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تج. محمد الحبيب الهيلة، (ط.١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٢م)، ٣٨٨/٤-٣٨٩.
- ١٦٢- الونشريسي، المعيار، ٤٤٥/٨.